
رواية
أحمد شوقي مبارك
اعترافات كاهن
ساحر الكتب

إهداء

الإهداء الأفضل سأقتبسه من أولى كلمات المخطوط الأصلي.. للأب الكاهن "إسحق يعقوب" ..

إلى الملاك الذي ظننت ذات يوم أنه الشيطان!

عشت سنواتٍ أتوسل للرب أن يجعلني مميزًا، ياليته ما استجاب!

الأب/ إسحق يعقوب

- 1 -

ريتشارد

نظر لي شاردًا وتأمَّل السماءَ من نافذتهِ المعدَّنية المترَّبة، هبط شعاعُ الشمسِ على رأسهِ، منعكسًا من على سطح أحد جانبي زجاج النافذة؛ فصارت رأسه كشعلِة نارٍ مُضيئة وسط ظُلمة غير متفانية، وهمهم بكلماتٍ لم أهتم بسماعها قَط. تحسس أذناي الكلمات بحثًا عن ضالتِها؛ لتسكين آلام حيرتِها وخمد نيران خوفِها.

- تقريبًا لاقيت طلبك، مكان وسعر معقولين جدًا، قُريِّب من شغلك ياذوب هتمشي عشر دقايق، لا مواصلات ولا غيره.

هبطتُ على أراضي القاهرة منذ ثلاثة أشهر بعدما خدَمَني كل من له نفوذ شرَّفتني الدنيا بمعرفته، وساعدني الله كثيرًا في ذلك حتى التحقت بفريق

عمل جريدة "العاصمة". ثلاثة أشهر من عناءِ راتبٍ أفقده في إيجارٍ مأوى يحفظني بداخله.

ثلاثة أشهر مفتقدًا للريف والخُضرة وحفلات السَمر تحت ضوء القمر، مزيَّلة بلفحة برد خفيفة قرابة الساعات الأولى للشروق. حياة بسيطة لم أهتدِ بها هنا قط؛ فاليوم كان رتيبًا مملًّا كشريط فيديو يُعاد يوميًّا بلا اختلافات طاغية أو مذكورة. كنتُ ذا موهبة ملحوظة في خلقِ عوالم من الهذيان أتعايش معها وأعيش فيها، أحكي لهم ويحكون لي.

كنت كإلهٍ في عوالم عقلي، كالقاضي في خلافاتهم، كالطبيب في آلامهم، كعزرائيل في غضبي.

- طيب.. كويس.

كان هذا ردي، حقًّا أنا إنسان قليل الكلام، دائمًا أكتفي بإيصال الفكرة فقط، كلمات دون داعٍ؛ فأنا أعلم بشكلٍ مؤكد أن شكلها لم يكن ليشكل فارقًا معي، وأثاثها أتمناه قديمًا ذا طابع كلاسيكيّ -وهو بكل تأكيد كذلك-،

لا وسائل مواصلات بين العمل والبيت؛ فلن أتعرض لزحام مواقف السيارات وتكدُّس الطُرقات وضياع الساعات في التنقل والاضطرار لمخاطبة الفضوليين جواري عن الأحوال السياسية أو الانتقادات الدينية لكوني حامل صليب حول رقبتي؛ فكوني سأتفادى كل تلك المساوئ سأنال نعمة لا يقدِّرها الكثيرون. عملي هو محيطٌ من النفاقِ الذي لم أتوغل فيه منذ أول لحظة؛ فقد اعتكفت على موهبتي وكانت مصدر رزقي، حياة من الحكايات المسلسَلة ذات الأصل الحقيقي والتاريخي، ولكنني كنت لا أنقل الوقائع كما يرونها هُم، بل كنت أقصُّها أنا كما أراها.. كما فهمتها.

أذكر ذلك الإعلامي رمضان عبد الواحد الذي سقطَ قتيلًا بين لحظة والأخرى، والطب الشرعي يصر على أنه لا يوجد متهم سوى هبوطٍ حادٍ بالدورة الدموية!، جلبت لهم عشرات الأدلة على استحالة ذلك الفرض ولكنهم تجاهلوني!

كنت قد اقتربت من نهايةِ العِقدين الأولين من حياتي في الأرض الخضراء، وتَوسم فيّ هناك أول شاهد

لحالتي المتميزة كما اعتقدوا! حينها جاءني بقلمٍ وعدة أوراقٍ وهمس لي:

- اكتب..

تذكرت حكايات عن رسول المسلمين، عن جلوسه معتكفًا داخل غاره يتأمل الدنيا والحياة. يتأمل السماء والأرض. يعتكف ليرى ويزيل عنه غشاء الضلال والعمى. اعتزلَ للوحدة، ليزيل عن عينه أي أثرٍ للحياة الدنيا، فيعتقد المسلمون أنه كان يعلم أن هناك خالقًا لهذا الكون، كان يعلم أن هناك إلهًا عظيمًا يتطلع إليه دومًا، إلهًا هو مَن رفعَ تلك السماء ومهد تلك الأرض. إله غير تلك الأصنام المنتصبة في الطرقات بمكة وحينما أتم عِقده الرابع من عمره وصار مستعدًا، همسَ له جبريل حامل الوحي العظيم:

- اكتب..

نظرتُ غير مُتذكِر له هيئة أصفه بها، ورنين صدى كلمته يتردد في أذني عن الكتابة، ورددت عليه بعد

وقتٍ استطال رغمًا عني:

- أكتب؟

تلاشت الذكرى من تلقاء نفسها، وفتحت عيني بعد أن خشيت من أن أكون قد نسيتها وصرت أعتمد على ما لدي من عيونٍ أخرى. أحيانًا يتساءل البعض عن رفيقه الملازم له في الجحيم، ولكنه لا يتساءل عن كيفية تفادي تلك الأبدية المؤلمة، ويصر على سؤاله الساذج الباحث فيه عن شريكٍ يتحمل معه العذاب، أما أنا؛ فلم يشغلني هذا أو ذاك.. بل شغلني سؤالٌ آخر، مَن صاحب العين المطمورة مثلي ومثل كل العظماء الذين كانت لهم أدوار هامة في تغيير مسارات حرجة في التاريخ؟

نهض من على كرسيه وابتعد عن موضع شعاع الشمس، ولكن رأسه ظلت محتفظة بتوهجها دون مصدر هذه المرة، ولاحظتُ إصراره على تفادي تلاقي أعيننا، وأردف قالبًا دفَّه الحديث قليلًا:

- كويس إن عربيتي وصلت من التوكيل.. الطريق طويل أوي لهناك!

كان مُعبأ بالدهون، جشعًا، مُطلّقًا، وفقدَ أحد أبنائه في حادث طريق، تخرج من جوفه صرخات مظلومة وطعام أكله دون وجه حق. يخشى الفقر؛ فلم ينسَ أنه يومًا كان فقيرًا. يخشى المرض، تُطارده ذكرى مريض لا يعرفه بصورة شخصية، ولكنه توسل إليه ذات يوم لينقذه فلم يساعده، ركع له ذلًا فنهره.. كما يخشى الناسَ لأنه يعتقد أنهم نسخٌ تطابقه. ويخشاني لأنني أعلم كل هذا!

لم أقرأ كتابَ "لغة الجسد" ولم تتسنَّ لي الفرصة لتصفُّح جُوجل، وغير مُقتنع بمبدأ أن حركة العيون تخفي ما في الصدور، وأن حك الأنف يستر الكذب، وغيرها من الأمور المختلفة التي وضعناها لشرح علوم الفراسة، وكأننا دائمًا نريد رفض فكره الاصطفاء الإلهي. الإنسان مثير للشفقة دائمًا حين يظن نفسه قادرًا على فَهم العالم من حوله وأنه يحركه وِفق قوانينه، يطغى بخياله فينسى أنه خليفة اللّٰه، ويظن

أنه مساوٍ للخالق؛ فأرى أحيانًا مَن يحاول توقُّع خُطوات الرب لنا.. ولكن عِبارة "إن الله لم يشئ لنا أن نعلم تلك أو ذاك" تُصغِّرنا أمام أنفسنا وتُرينا حجمنا الحقيقي وتصر على وضعنا أمام المرآة التي نتجاهلها حينًا وننكرها حينًا آخر.. وأرى أن تجاهل أمر ما هو إلا اعترافٌ واضحٌ وصريحٌ بوجوده، واللجوء لإنكار شيء نخشاه هو أمر مثير للشفقة.

تحرك هو وقد خُلِعَت ملابسه أمام عينيّ، رأيته عاريًا مرتعشًا، رأيته مذعورًا يتجه لسيارته ويحرص أشد الحرص على ألا ينظر لي حتى لا يرى نفسه في مرآة عيني، فتحتُ بابها وجلست بجانبه، أدار محرك سيارته بأنامل غير ثابتة، وأطال وقت التحرك، ونظر لي لأول مرة قائلًا:

- احفظ أسراري!

أومأت برأسي إيجابًا، وابتسمت ساخرًا، ورفعت من أمامي مَظلة الشمس أردتها أن تغمُرني بأشعتها لتتنسم لي رائحة الكون.

كنت في الصف الثاني من المرحلة الإعدادية حين سألت ذات يوم معلم مادة العلوم:

- تفتكر يا أستاذ العالَم له ريحة؟!

زعَّق في، وسبَّني على سؤالي! معللًا ألا يجب مقاطعته أبدًا، وأن استفساري لا يخص محور الحديث، كما كان يرى أنه لا يصح أبدًا أن تبدأ بلفظ "تفتكر"، وأن "أستاذ" لابد دائمًا أن تُتبَع بكلمة "حضرتك". أثناء أحاديثه عن أمجادِه وبعثاتِه في الخارج، وحين أُطلِقَ الجرس، اختلى بي وحدي وهمس في أذني:

- ماينفعش كل حاجة تشوفها تحكيها، ماينفعش كل حاجة تسمعها ترددها، مش كل حاجة بتشوفها انت بالضروري غيرك يشوفها. إنت مميز بس متهور. ممكن تكون موجود في الدنيا عشان دور مهم لسه هتلعبه، بس لو فضِلت كده هتخسر كل حاجة..

كنت صغيرًا على أن أستوعب تلك الكلمات، كنت أنظر لعينيه وأراقب اهتزاز شفتيه.



تتحرك السيارة حينًا وتقف حينًا آخر تتقلب الأنوار وتتعالى الصيحات والسباب، أغمض عيني فأجول بعوالم لم يُسمَح لنا بمعرفتها، وأتعجب للمرء حينما يرى أن الله خلقَ كونًا ومجراتٍ، وعبأها بالكواكب والblock_9 حتى يكون ساكنها الوحيد هو الإنسان. استخفَّ بهذه الثقة المبالغ فيها، واستحقر الآخر صاحب نظرية أنه كان هناك آخرون ذكرَهم الرب بإحدى رسائله وبشارته السماوية!

نظرت له وسألته بكلمات محددة ارتعش على أثرها كأنه يتحاشى الحديث معي وستر ما تبقى بداخله ولم أعرفه بعد:

- إيه حكاية الشقة دي؟!

في البداية بدا لا يفهم الأمر، وبعدها اتسعت عيناه ورمقتُ قطرات العرق وهي تُولَد من مسامه، تفر وتهرب منه، واستدعى الغباء وعاش دور الأحمق، وأجاب على السؤال بآخر:

- تقصد إيه؟!

تجاهلته ولم أعد سؤالي، واكتفيت بتأكيد أن هناك سرًّا يكمن بأرجاء المأوى الجديد، ولن أضغط عليه أكثر من ذلك وسأصمت وأجعله يتولى قيادته للسيارة بتركيز أكثر وخوف أقل.

كنت ابن الثامنة عشرة حين دخلت بيتنا في الريف وأمي تتحرك ناحيتي وتنهال بكفها على وجهي، ثم تتحرك ناحية الحائط وتمسك الخلَّاط في يدها تنظر لي وتقول:

- هسألك سؤال، وتجاوب من غير كذب!

وافقتُ على الفور؛ فأنا بأي حالٍ كان غير شائع عني الكذب وإخفاء الحقائق، ولكن الجميع كان شائعًا عنهم عدم التصديق واتهامي بطفولة مراهقة ومداعبة الخيال والغرق فيه. شرعت أمي بأولى كلمات السؤال وهي تغرس (الفيشَّة) في الحائط لتحتضنها الكهرباء، وبدأت في إطلاق الصرخات وهي تنظر لي بعينين

تتسعان أكثر بصورة بثت في قلبي الذعر، ظللت مكاني أنظر لها وأتأمل شعرها وهو يشيب، ردة فعلي كانت متأخرة، جريت نحوها بعقلٍ انسحب مني وأقنعني بأنني قادرٌ على إبعادها، ولكنني بمجرد أن لمستها دفعتني الكهرباء بعيدًا جدًّا عنها وجسدي يدمي في نهاية الأركان، وأمي يحترق قلبها بالكهرباء تدريجيًّا، إلى أن سقطَتْ جثة هامدة، ولكن عينها ظلت تنظر لي وأنا على جانبي ملقىً، صامتًا وحدي، خائفًا ونادمًا؛ لأنني في لحظة إهانتِها لي.. تمنيت موتها!

استوحش بيتنا وتلاشت الأصوات به وصرت كالغريب بالداخل. وِحدة صامتة تتربص بي في كل أرجاء الغرف المختلفة الملطَّخة برائحة ظلت تحتضني دائمًا.

فتحت عينيَّ في السيارة بعد أن أوقفها الآخر ونظر تجاهي وقال:

- وصلنا..

أشار إلى أحد البيوت مضيفًا:



- هي دي..

أخذت شهيقًا طويلًا وأنا أستشعر نفس الرائحة التي قد فارقتني قبل أعوام حين فقدت أمي.. ظلت هكذا تطاردني لسنوات طوال، وبدون أن أشعر هتف لساني:

- الموت له ريحة مميزة أوي.

فُتح بابُ السيارةِ وغادر الآخر وانتظرت أنا للحظات أرمق المارين في الشارع، لم يستعجلني هو وكأنه كان ينتظر هُدنة مني ليرتاح قليلًا، وبدأ في إشعال سيجارته، وبقيت أنا أنظر إلى الجميع بفتورٍ تامٍ ومللٍ . أحدهم طبيبٌ، وهذا رضيعٌ، وهذا عاجز عن ديونه، وهذه امرأة فقدت ابنها على حدود سيناء.. تبًّا للإرهاب..

وهذا بائع أكفان.. وذاك مدمن.. وأحدهم يصرخ في عجوز ويصفه بالطاحبي؟!

ما معنى ذلك الوصف؟!



و هذه؟!

ما هذا؟!

عاد بي الزمن إلى حين رأيتها، بجمالها العادي جدًّا لدرجة تجعلك تعشقه، ليست صهباء أو شقراء، لم تمتلك الأنوثة الفاتنة المتفجرة بل كانت عادية!.. ولذلك كنت أعشقها في مراهقتي، وأبلغتني برغبتها في أن أتقدم لخطبتها، ولكنني كنت أماطلها دون سبب مقنع. كنت أعشقها ولكني كنت خائفًا من الحياة معها.. أحببتها ولكني خُفت من الفتور بعد الزواج، أردت الحفاظ على شعور الحب داخلي، وهاجس سيطر عليّ أن الدائم في البُعد هو الأقرب إلى القلبِ. كانت أفكاري ومازالت تشبه كثيرًا لذلك التاجر في رواية "ساحر الصحراء"؛ حينما رفض زيارة البيت الحرام للمسلمين حتى لا يفقد آخر سبب له في الحياة . ظللت هكذا حتى ساد الملل بيننا، وبين ليلة وضحاها كانت في أحضانِ رجلٍ آخر، وحاولَتْ كسري بدعوتي إلى الحفل، ولكن لم يزدني ذلك إلا عشقًا لها وتخيلات كانت ستعجز عن تحقيقها!

شبيهتها كانت تعبر الشارع في حذرٍ، شوارع القاهرة تختلف، ومثل هذا النوع من الفتيات أشعر أنه لا يحب سوى تحت السماء الصافية وعلى الخَضَار الممتد.. لمحة عادت مجددًا من الماضي لتتشكل أمامي مجبرة إياي على التطلع فيها كأنها شريط فيديو يمر أمام عينيّ.. كنا في المكان ذاته الذي اعتدنا كثيرًا اختلاس المقابلات فيه.. حينها نظرت لي بشغف وآمال كثيرة في عينيها وتساءلت وأجابت على سؤالها في نفس اللحظة، كانت تخشى أن تسمع إجابة أخرى منّي:

- هتعمل إيه بعد التخرج؟ سمتعهم بيقولوا إنك هتسكن في المدينة وهتسيب الريف.

شرعت في الإجابة عليها ولكنها كانت قد هرولت هربًا حين سمعت خطوات أحدٍ يقترب منا وخشيَتْ أن يراها أحد بصحبتي ونطقتُ بإجابة لم تسمعها هي قَط.

عدت للكتلة الدهنية الجشعة، وطلبت منه أن نصعد لنرى الشقة، ومازالت رائحة الموت تداعب أنفي،

تتقلص كلما خطوت لأعلى خطوة؛ كأنني أدخل فيه فأعتاد رائحته إلى أن تتلاشى نهائيًّا، أصعد الدرج خطوة وراء خطوة، تقابلت بعين أحدهم هابطًا مواجهًا لي، ابتسم فبادلته الابتسامة بأخرى، منذ أول وهلة علمت أنه انطوائي بعض الشيء، شعرت أنه يشبهني ورأيت نفسي به. استكملت الصعود وأنا ألقي النظرات على المصعد المعطل في أحد الجوانب وهمست داخلي دموعٌ.

فاجأني السمسار وهو يغرق في عرقه بحديثه؛ محاولًا تلطيف الأمور قليلًا وإزالة عناء الصعود على تلك الدرجات غير المستوية وغير المريحة.

- وهنا شقتك.. الدور السابع.. تعرف إن block_9 سبعة رمز الكمال!

لا لم أكن أعلم ذلك!.. كانت تلك إجابتي ولكني لم أنطق بها قط، ولكن الماضي يصر مجددًا على أن يسحبني سحبًا لثناياه ليلقي أمامي باللمحات؛ كنت حينها في الثانية بعد العشرين عندما راودني حلمٌ لا

أعلم ما علاقته ولماذا يقذفه عقلي أمامي الآن؛ حين قال لي شريط من الدخان المتجسد بشيء مفتقد للمعالم.

"كالعظماء، سترتقي ارتقاءهم.. لعلك ترى ما لم يرَه أحدا!"

جملة أعتقد كثيرًا أني رأيتها سابقًا، كنت كثير القراءة وقد تكون ارتبطت بعقلي برابط خفيّ حين قرأتها في كتاب أو رواية، ولكنها ظلت تطاردني كثيرًا وعذبني عدم تذكري أين رأيتها!

فتح السمسار الباب وخطوت بيميني داخل الشقة، وبمجرد أن اصطدمت بهوائها المُترَّب المنحسر منذ آخر زائر رحل منها، شعرت بمن سلَّط ضوء سيارته أمام عيني وأنا أستمع لصرخات لا مصدر لها. كان ماضي الشقة يحاكيني، يخرج ما في جعبته، ولكنني حاولت تهدئة ثورته وهمست داخلي: "لمَ العجلة فأنا زائر لن يرحل أبدًا.."

هدأت اللمحات والأصوات رويدًا وشغلت نفسي بمشاهدة إحدى الغرف، وكانت هناك رائحة طفيفة لسائل منوي بعيد المدى، ولكنه كان نجسًا وزاد يقيني حين شممتُ رائحة لسائل مختلف في غرفة أخرى، ولكن هذه المرة أيضًا فضحني لساني بنوعٍ من التباهي بالموهبة التي لا اسم لها:

- خيانة!

رأيت نظرة في عين السمسار كانت إعجابًا أو سخرية لا أعلم؛ فقد كانت تحمل الاثنين معًا، ولم يجب واكتفى بأن منحني المفتاح وهبَّ راحلًا ليتركني وحدي بها.

هناك أناس خُلِقوا ورحلوا في سلامٍ دون أن يشعر بهم أحد، وكان هذا اختيارهم، هناك آخرون حاولوا التأثير فيمن حولهم وإنبات نبتتهم الأولى لتغيير شامل، وهذا أيضًا كان من اختيارهم، وأخيرًا هناك من خُلِقوا وقد أسُندت إليهم مقاليد أشياءٍ عدة لا تفسير لها سوى أنها



مشيئة ربانية خُلِقوا من أجلها وهذا كان اختيار الرب لهم.

بهوٌ طويلٌ يتلون بالاصفرار لهزمِ لونَ الجدران الأبيض وفقده رونقه، صليب أسود على اليمين ولوحة العشاء الأخير على اليسار، وصورة كلاسيكية أحببتها لعائلة اعتادت الفضيلة لأمٍّ تعشق ما ليس لها.. رائع.

غرفة طفولية يتوسطها تلفاز صغير. إذًا هذا كان جيدًا، كنت في حاجة لبعض الضوضاء في مثل ذلك السكون المميت. لم أستأنف التحرك بزيارة دورة المياه والمطبخ اللذين بدا لي تداخلهما معًا بفاصل صخري متميز، وبقيت أتحسس تراب السرير المدَهون بالسماوي وملاءته البالية الممزقة أطرافها، وأتحت المجال بإيصال التيار للتلفاز، وألقيت بنفسي على السرير مغمضًا عينيّ؛ فكنت حقًا بحاجة لسبات طويل المدى وأذني تلتقط الكلمات التي تتردد في التلفاز وترددها ينخفض تدريجيًا وأنا انغمس في النوم شيئًا فشيئًا.

"القبض على أخطر القتلة المأجورين.. أخيرًا القبض على عازف الكلارينيت."

رحلتُ عن العالم وصرت أصم . أبكم . أعمى . عدا شيئًا غريبًا يظل دائمًا متيقظًا اعتبرته عينًا مطمورة لا يملكها إلا المخُتارين، ولكني أبصرت بها أمرًا. قد يصعب وصفه بالصورة المادية؛ فكنت أتلقى أمرًا بصورة مختلفة لا وصف لها، ولكنني فهمت الأمر جيدًا دون أن أسمع كلمات، وأبصرت جمال ذلك الكيان دون أن أراه، ولكنه قال بدون كلمات:

- سترى الشيطان، وسترى الملاك، وسترى الرب.. وأخيرًا سترى الإنسان!

لا تسألني كيف أعلم.. كيف سمعته.. كيف تحدَّث.. أنا فقط أعلم!

كانت كلمات قديمة لا تفسير لها إلا من خلال ما في خيالي من أفكار فلسفية أراها دائمًا تضييعَ وقتٍ وإفلاس لا نهاية منه. الحياة ليست فلسفية، ولكنها

مادية بصورة روحانية. مضت سويعات لا أعلم مقدورها والهاتف ينتفض بجانبي، أبصرت اسم المتصل بإرهاقٍ شديدٍ وجسدي شديد البلل ولمحت اسم "المشتاق" على شاشة الهاتف.

المشتاق هو رئيس التحرير الذي أعمل لديه منذ ما يقرب التسعين يومًا.. طلباته لا تنتهي لاشتياقه للنجاح بأي وسيلة حتى وإن كانت ادعاء الكذب والافتراء على الجميع. استغل موهبتي وقدراتي في قراءة البشر وبدأ يسند إليّ عمودًا في الصفحة الفنية كل أسبوع، أترصد أحدهم وأبدأ أحكي عن حياته من خلال تمثيله أو أغانيه وخلافه مما يطرحه علينا على الشاشة يوميًّا..

شهر واثنين وكانت الجريدة تحمل عبئًا شديد الحجم من قضايا كبيرة، خصوصًا بعد أن خضنا في أعراض الكثير منهم، ولكن للحقّ، وبعد أن تم إثبات أننا لا نملك الدليل لذلك واستعانت إحداهن بمحامٍ كبيرٍ ساعد في تحريك القضايا ضدنا، كان المشتاق بين أمرين؛ إما طردي وخسارة موهوبًا يرى ما لا يراه الجميع، إما



نقلي من الجانب الفني والاعتذار لكل الفنانين الذين تطاولنا عليهم يومًا.

بالفعل تم تأكيد نقلي حين رأى المشتاق بأنه يمكنه استخدامي بصورة افضل وأروع لو وضعني في مجال الجريمة والتحقيقات وغيرها من الأمور التي تشبه ذلك.. لا يهم بالنسبة لي، على أي حال سأوافق حتى وإن وضعني كعامل شاي بالمكان؛ فلا نقود لدي ولا إرث أعيش منه ولا على استعداد للبحث عن عمل في مكانٍ آخر . أنا شخص أعيش بالبيت، لا أحب الترحال والسير في الشوارع وشكرًا للرب على أنه منحني عملًا أتم أغلبه في البيت، ورئيس التحرير لا يهتم بحضوري اليومي، فقط يريد إبهار القارئ، وأنا سأفعل بكل تأكيد.

ضغطتُ زر استجابة المكالمة ولم أقرِّب الهاتف من أذني كثيرًا حتى لا تنفجر طبلتها بصوته الأجش، وكالمعتاد.. نفس الكلمات لا تزيد ولا تنقص حرفًا.

- جهّزت الشغل؟

سئمت هذا السؤال اليومي، وحاولت إيجاد تغيير في إلقاء إجابة مختلفة عن إجابة أمس:

- طبعًا.. الصبح هيكون عندك..

كذبت! كنت غير قادر حتى على الإمساك بقلِم والشروع في البحث عن جريمة وإصدار التوقعات والتلميحات، كما أن الإشارات التي أراها، والأشياء التي تبصرها عيني المطمورة ليست بالشيء الإجباري أن تراه بمعنى دقيق وواوضح، أنا لست من يتحكم بالأمر؛ فأنا أرى حينًا وحينًا لا.. أرى البشارات وقتًا وآخر لا.. تصدُق أحيانًا و...

حسنًا، لا أذكر أنَّ تنبؤاتي أو ملاحظاتي يومًا كذبت!

أغلقت الهاتف بعد أن انتهينا من الحديث المعتاد لا جديد فيه، ونهضت في جولة جديدة بالشقة لاعتياد جغرافيا المكان الجديد، أتحسس جدرانها البالية وأزيل الحرج من داخلي، وأيضًا أمارس هوايتي بالكشف عن



ذكريات الساكنين قبلي. بدأت بالمطبخ الذي كان صاحب وصف واحد: "قذر" !

كلما مرت دقيقة أفهم سبب سعر إيجار تلك الشقة المنخفض بشدة غير مسبوقة كأنها ملعونة يخشى الجميع سُكنها، أو منحوسة بخدعة سوء الطالع على المستأجر.. ثم خطرت في بالي مقولة قالها أحدهم لي ذات مرة.. لا أذكر اسمه ولا متى قالها -تبًّا لذاكرتي- ولكنني أذكر قوله: "مش كل حاجة بتحصلنا لازم تكون صدفة، أوقات بتبقى قدر.. قدر بيتحرك ناحيتها وبيحاول دايمًا يوجهنا للطريق اللي الرب رسمه لنا.. للأسف كتير مش بيفهم كده إلا بعد فوات الآوان".

قررت بداخلي وأنا أشعر بالسكون يدخل صدري من حينٍ لآخر أن يكون شراء تلك الشقة أول أولوياتي، مستغلًا سمعتها السيئة والتي سأكتشف سببها قريبًا بكل تأكيد وألعب على هذا الوتر حتى أبخس ثمنها إلى نصف ما تستحقه، وبذلك يكسب الجميع ؛أخلصهم من سوء طالعها، وأفوز أنا بأربعة جدران أستتر بينها.

عدت للغرفة الطفولية مجددًا والتلفاز كان مازال يلقي أخباره الكاذبة على أذنيَّ، وبدأت في إخراج ما لي من ملابس لأعبّئها داخل هذا الدولاب الرمادي الجميل، وكان ترابطي بهذه الغرفة أكبر بكثير من غرفة النوم الكبرى لشيء لا أعلمه ولكنني شعرت بارتياح أكبر هنا، ويمكن أن يكون شعوري بذلك لوجود التلفاز أو... لا أعلم..

في أيامي الأخيرة في القرية كان الختام المسك لأحد أصدقائي أو معارفي -إن أردت الدقة- فلم أعرف يومًا معنى لكلمة صديق وتوأم الروح، وقد لقي مصرعه أسفل حطام أحد المصانع الذي قرر صاحبه زيادة عدد الطوابق فجرًا ورحل تاركًا إياه يتراقص بالعاملين، لينتهي الأمر بهم ممزقين أسفله، ويتمكن ببراعة من ترك البلاد والرحيل. شارك الجميع في حمل دماء الضحايا حسب معتقد المشاركة الوجدانية للمصائب والكوارث وتقاعس الجميع عن المساعدة حتى الثامنة مساءً، وبذلك يكون قضوا على آخر أمل لخروج أحدهم حيًّا من أسفل الحطام وتكون ردودهم إعلامية

بمنتهى الاستفزاز؛ بأنهم فعلوا ما في استطاعتهم ولا اعتراض على مشيئة اللّه!.. أي إلهٍ يعبدون!

فتحت الدولاب، لابد من تنظيفه من أثر الزمان ومحو ما به من روائح لسوائل نجسة، ولكنه لم يكن فارغًا كما اعتقدت؛ وجدته مكتظًا بالملابس القديمة، وكانت اللمحة الأولى في حياة الأسرة السابقة؛ ملابس لطفلة تعبئ ثلاث أرباعه من خيوط صوفية كان فخمة ذات يوم قبل أن يمر عليها الزمان، وأخرى قليلة لفتاة أخرى في عشرينياتها، ولكن ذوقها شِبه منعدم تمامًا، ليس هذا وحسب، ولكنني شعرت بنفس الرائحة للسائل المنوي تملأ الدولاب بشكلٍ لم أشعر به بأي مكانٍ بالشقة بمثل هذه القوة.

بدأت في اخراج الأطقم واحدًا تلو الآخر بنظرة فاحصة لكل قطعة. أنهيت الملابس الطفولية وبدأت في الآخرين، وأخرجت ثلاث قطعم منهم بصورة عادية، وبدأت في إلقائهم بجانبي ارضًا وقد أعماني غبار الزمان ورائحتهم العطنة قليلًا، قبل أن أشعر بسقوط شيء أسفلي وأنا أحمل العباءة السوداء

الرابعة؛ الغبار كان منتشرًا في جميع الأرجاء، غبار دفعني دفعًا لعام 1992، حين كنت في الثالثة من عمري وذاكرة تأبى النسيان لأحد جنود الرب وهو يُطهِّر أرضه ويسحق أبناءه ويدفعهم تحت البيوت المتراقصة وقريتنا ترى زلزالًا لم تشهده مصر من قبل؛ فقد كنا الأكثر ضررًا وتأثُّرا بذلك الشيء الذي أتى على العمران الهزيل لدينا بالقرية، ورغم صغر سني حينها إلا إنني لا أنسى تلك الجميلة ذات الشعر اللامع التي ظلت متعلقة بجسد أمها الدامي أسفل شرفة أحد البيوت، كانت متعلقة بجثة أمها،

صارخة تنادي عليها، يومها سألت أبي بلهجة طفولية: "ليه الرب عمل فينا كده؟!.. مش قُلت إنه بيحبنا؟!"

كان المشهد من حولنا أقوى من أن أتلقى ردًّا من أبي، أو أنه لا يملك إجابة حقيقة على تساؤلي، هرولت معه بسرعة مبتعدين عن العمران، وعيني لا تزال تلاحق الفتاة الصارخة حتى سقط عليها جزءٌ آخر من بقايا الشرفة لتُدفَن تحت الحطام.

انتهى الزلزال وكالعادة لم يتلفت لنا أحدٌ، تركونا وحدنا نعمَّر ما هُدِّم وظل الجميع يرى أن الله يرحمنا بالحرب علينا. لم أفهم، ولكنني حينها كنت في سن لا أستطيع فيها التحدُّث، لذلك لم أسأل من جديد عن تلك الواقعة أبدًا.

فتحت النافذة لتخفيف حدة الغبار بالشقة وعدت ناحية الدولاب أبحث عن الشيء المنغَّم بصوت سقوط، وكان على الأرض مجموعة أوراق منثنية، متآكلة الأطراف، مصفرة اللون، كوفيّة الخط بحبرها الأسود الذي تلاشى بعضه.

كانت الصفحات مُblock_9ة وهذا سهَّل عليَّ كثيرًا إعادة ترتيبها، وكان عنوانها "ذات يوم كنت مميزًا" تأملت هذه الورقة ورسم الأحرف والكلمات، وفكرت في تفسير لهذه الجملة المريبة؛ فإن كانت بلغة الفلسفة فلها أكثر من معنى. أتذكر ذات يوم حين قال لي أحد المدرسين بالمدرسة الثانوية لمادة الفلسفة وهو يستعرض أمامي قواه بقوله إن:



انتهى الزلزال وكالعادة لم يتلفت لنا أحدٌ، تركونا وحدنا نعمَّر ما هُدِّم وظل الجميع يرى أن الله يرحمنا بالحرب علينا. لم أفهم، ولكنني حينها كنت في سن لا أستطيع فيها التحدُّث، لذلك لم أسأل من جديد عن تلك الواقعة أبدًا.

فتحت النافذة لتخفيف حدة الغبار بالشقة وعدت ناحية الدولاب أبحث عن الشيء المنغَّم بصوت سقوط، وكان على الأرض مجموعة أوراق منثنية، متآكلة الأطراف، مصفرة اللون، كوفيّة الخط بحبرها الأسود الذي تلاشى بعضه.

كانت الصفحات مُblock_9ة وهذا سهَّل عليَّ كثيرًا إعادة ترتيبها، وكان عنوانها "ذات يوم كنت مميزًا" تأملت هذه الورقة ورسم الأحرف والكلمات، وفكرت في تفسير لهذه الجملة المريبة؛ فإن كانت بلغة الفلسفة فلها أكثر من معنى. أتذكر ذات يوم حين قال لي أحد المدرسين بالمدرسة الثانوية لمادة الفلسفة وهو يستعرض أمامي قواه بقوله إن:



" كل منا يحمل نفس المقدار من العظمة والضعف.. من التميز والفشل، تصرفاتك وإرادتك في فتراتك حياتك المحورية هي بس اللي هتخلي جانب منهم يسود على الآخر."

همست بداخلي في نفسي وأنا أقرأ العنوان من جديد:

"كنت محظوظًا أيها المؤلف.. كنت قويًا كفاية لتجعل جانب تميزك سائد على فشلك."

تراجعت بخطواتي ناحية السرير، واتخذته موضعًا لي وافترشت الأوراق حولي، ووضعت على يساري ورقة العنوان، وأخذت من الكومة الوررقة صاحبة block_9 اثنين وبدأت أقرأها.

بدأت بالعنوان السابق ذِكره والذي كُتِبَ تحته: "الفصل الأخير"

و ماذا عن الفصول السابقة؟! وأين أجدها؟! ولماذا أسأل عنها في الأصل؟!

رأيت أن كاتب هذه الوريقات قد دوَّن تاريخ كتابته أسفل الصفحة 28/3/2012.. إذًا لماذا يظهر أثر الزمان على الورق بهذه الصورة، كأنها مخطوطة يوسف السباعي لنائب عزرائيله؟!.. وتطايرت بعض الكلمات من الصفحات لتزيد الأمر صعوبة على أي إنسان آخر يقرأها، أما أنا فسيزيد الأمر متعة لاكتشاف ما وراء تلك الأوراق.

هذه الشقة لم يسكنها أحد منذ خمسة أعوام كما قال لي السمسار وهنا يكون السؤال الأول ومكمن الحيرة، هذه الأوراق بتاريخ "2012" أي من عامين فقط!.. هناك من أتى بها إلى هنا ورحل، مَن يكون هذا الزائر الخفي الذي لا يعلمه أحد أو أخفاه عنه السمسار، وإن كان هناك سكانٌ للبيت منذ عامين لمَ كذب السمسار في ذلك! لا يهم.. فلن تفرق إن كان هناك سُكَّان من شهر أو عام أو عشرة؛ فهي عندي وعند الجميع سواء!

الصفحة لم تحتوِ على شيء سوى سطر اوحد في المنتصف كانت من الكتاب المقدس، أعلم ذلك:



"هُنَا الْحِكْمَةُ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسُبْ عَدَدَ الْوَحْشِ، فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ، وَعَدَدُهُ: سِتُّمِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ."

لا أهتم بالروايات الأسطورية والفانتازيا، لا أحب كلَّ ما يتكلم عن عوالم خفية خارقة، لا أحب من يفكر أن بإمكانه التواصل معهم، فإن كانوا خيرًا فلمَ أخفاهم الرب عنا، وإن كانوا شرًا فالرب يحمينا منهم، ولماذا هنا منح الرب رمزًا للشيطان نراه من خلاله، وكان فى الواقع تكرار العدد ستة ثلاث مرات يمثله؛ يمثل حقده وغروره وسعيه نحو الكمال كما قرأت عنه ذات مرة في عِلم حساب الجمل، فأنا أعلم أن block_9 سبعة الساعي لتحقيقه الشيطان ليس بمجرد block_9..

ليتقدس اسمك

ليأتنا ملكوتك

لتكن مشيئتك

أعطنا اليوم

اغفر لنا ذنوبنا

لا تدخلنا في تجربة

نجِّنا مِن الشرير

وضعت هذه الورقة وأخذت أخرى؛ فقد كان الأمر مثيرًا حتى الآن، وكنت متحمسًا كثيرًا لقراءة ما تخفيه تلك الأوراق، فكانت تضم شيئًا أشبه بدعاءٍ للرب من أحدهم يدعى "إسحق يعقوب" وهو مؤلف تلك الوريقات حسب ما فهمت حتى الآن..

- 2 -

حي متوسط الحال كالغالبِ لدينا، شوارع مكتظة بالبشر، منهم من يفترش بضاعته أرضًا، وآخرون في حوانيتهم المختلفة على الجانبين، ومقهى شعبي في المنتصف، الطرقات مصدر إزعاج لا ينقطع منذ الخطوة الأولى هنا، وأيضًا هناك من يتحركون على استحياء يكاد لا يشعر بهم أحد بالحي. نظرت إلى الصديق وتذكرت أنني حتى الآن لم أعرف اسمه وقد مر أكثر من عشرين دقيقة؛ فسألته عن اسمه وهنا بدأت معاناته في الرد وحركة لسانه المستعصية:

- ممحمووود.

- أنا ريتشارد.

ابتسم محمود كالعادة، وردَّ:

- إقـ . قامة.. مستمرة؟!



- تقدر تقول كده.. أكل العيش صعب في الريف زي ما انت عارف.

خطوات تتلوى أخريات ونحن نعبر من زقاقٍ لآخر وأنا أرمق البيوت المصطفة بعدم انتظام، أرمق جدرانها المتهالكة الساقطة والوجوه الفقيرة المتجعدة والملابس الرديئة والشوارع المتسخة، لم أشعر بمثل هذه السكينة والراحة منذ ثلاثة أشهر، قد تكون هذه المرة الأولى التي أرى فيها أناسًا يشبهون من كانوا في قريتنا!.. محتمل..

وربما شعرت أنني الأفضل حالًا بينهم.

- عندك خبر بمين كان عايش في الشقة قبلي؟!، وليه سعرها رخيص بالشكل ده؟ حاولت أفهم من السمسار بس حسّيته بيتهرب.

تردد قليلًا، لاحظت ذلك بسهولة وبرز ارتباكه ورمقت في قاع عينيه إجابة كذبَ بها لسانه حين هز رأسه نافيًا وقال إنه منذ أن خطا هنا مع أمه منذ حوالي أربع

سنوات وهي على حالها مغلقة دون صاحب يعلمه أحد.

ظللت أنظر له وأنا أعلم أنه كاذب وهو يتحاشى النظر لي، ثم تعالت صيحات حولنا سعيدة وأخرى بائسة فأصطنع ابتسامة وهو يقول لي مغيّرًا دفة حديثنا:

- ككالعادة الأهلي هيكككسب..

أهلي وزمالك صراع ممل ورتيب خاصة حين يكون المهزوم والمنتصر دائمًا لا يتبادلان مراكزهما، وأيضًا لا أظن أنني رأيت في إحدى الألعاب الرياضية متعة كغيري من البشر، عدا لعبة وحيدة أظن أنني أتقنتها وهي "اليوجا".. أو يمكن القول إن فراغي يحتّم عليّ لعبها بصورة مستمرة يومية.. منذ زمن والجميع يهابني في القرية، خاصة أنني كنت الأذكى بينهم وأفضحهم، أشعرتهم جميعًا بالغباء، وبأنني أتميز عنهم؛ فمقتوني وابتعدوا عني ولم يبقَ سوى الحبيبة -التي أيضًا أبعدتها عني متعمدًا-، وتحملت فراقها حتى لا أفقد أو أرتاب من حبها يومًا.

تحرك ناحيتنا أحدهم.. كان خارجًا من المقهى الشعبي يلوّح لنا بيده أو يلوح لمحمود على الأخص، هرول باسمًا ولكنني لسبب ما كرهته وودت الفرار بأي طريقة منه حتى لا أدع فرصة للحديث معه، قال لي محمود:

- دده ميناااا..

أحمق من يحكم على الناس من ديانتهم؛ فلوهلة أحببت ابن الدين الآخر ولأخرى كرهت ابن ديني، أتعجب أن يكون الميل حسب الانتماءات؛ فأنا مسيحي لأن أهلي كانوا كذلك، وهو مسلم لأن أهله كذلك، لم يختَر أحد دينه؛ فأهلنا هم ما اختاروه لنا وظلوا سنوات يقنعوننا أنه الحق، وأنهم أقاموا المقارنة العادلة ووجد الجميع أن دينهم أو طائفتهم على الأخص هي أهل الملكوت والباقي أهل الجحيم.. هراء!

مينا في كلمات -حسب ما رأيته بعيني المطمورة- في أوائل الثلاثينيات سبق وأن رأيته وأنا جالس في السيارة. طبيب. عقله مريض. يرفع صوته ليخفي عجزه. يدعي الغرور ودائم الشعور بالنقص. تم رفضه

ذات يوم حين أراد خطبة إحدى الفتيات ولكنها رفضته، توسمَّت فيه الشر رغم محاولته الجاهدة لإخفاء ذلك الجانب منه.

- إنت جديد هنا . ما افتكرش اني شُفتك قبل كده.

أجاب محمود بدلًا عني وقد رأيت صعوبة كلامه قد تلاشت قليلًا:

- رريتشارد.. السااكن الجديد في الشقة المقفولة.

نظر لي مينا وعلى وجهه أثر ذهول وكأنني خُضت في شرف أمه، وصرخ بقوة:

- عايش في شقة عزيز ؟!

أخيرًا نطق أحدهم عما يخفيه الجميع عني.. شرعت في سؤاله عن عزيز هذا، ولكن محمود جذب يدي بقوة للرحيل دون أن يدع الحديث يستمر، ووجدت نفسي أتبعه في صدمة كأنه يتملكني وأنا تابع له، ومينا ينظر

لنا في استنكار لفعلتنا هذه، وترك الشارع وعاد إلى المقهى ليتابع المباراة مستأنفًا ضحكاته.

عدنا إلى البيت دون أن يتفوه أحدنا بكلمة أخرى، أوقفني تحت البيت، وبصعوبة مجددًا، وبلغة صارمة حدثني محمود مرتعشًا:

- إووعى تسأأأل حدعن عززيز تااني.. ككلهم كدداببين.. مممحدش عااارف الحقييقة.. اصببر.. اصببر.

وصعد لأعلى تاركًا إياي في الشارع وحدي وبرودة الهواء تعتصرني؛ فحضنت ذراعي. صاح أذان العشاء لإخباري بمرور قرابة الثلاث ساعات بصحبة محمد، عزمت على محاولة تناسي كل ما حدث ولو قليلًا، وأن أصبر فعلًا؛ فالمكان جديد ويحتاج إلى التأقلم قليلًا، وبالتأكيد إن كان هناك أمرٌ يخفونه عني سأعلمه، ولكن يجب أن يكون بحكمة، ويجب أن أعود حالًا إلى البيت؛ فقد تثاقل جفناي مجددًا رغبة في النوم، ولكن

يجب إرضاء القليل من الفضول بالوريقات التي وجدتها.

***

جلست على السرير أحتسي كوب القهوة الساخن، وأشعلت سيجارة، وبدأت في قراءة الصفحة الثالثة والتي كانت كإهداء لأحدٍ مبهم لم يُذكر اسمه قط.

"إلى الملاك الذي ظننته ذات يوم أنه الشيطان!"

استكملت القراءة في الصفحات التالية دون التوقف، بعد أن أوقفتني كلمات الإهداء طويلًا وشرعت في التهام الكلمات بشغفٍ كبيرٍ؛ فلم أكن أعلم ما سوف تئول إليه تلك القراءة.. أحيانًا أكره تلك اللحظة التي أتيت فيها لهذا المكان وأكره كوني مميزًا..

يا ليتكَ ما أتيت بي لهذا المكان، يا ليتك ما جعلتني مميزًا، فقد سلمت إليّ مقاليد مهمة شديدة الصعوبة لا أعلم إن كنت سأتمكن من حملها على عاتقي أم أنني سأتوغل في وحل الخطيئة، اغفر لي ضعفي.

- 3 -

مذكرات إسحق يعقوب

من أين تكون البداية حيث في اعتقادي أن الحياة ما هي إلا دائرة بدايتها هي نقطة نهايتها، لكن باختلاف أطوارنا بها. هي لا شيء سوى كرحلة قارب بمحيط ثائر يصر على ابتلاعك بأحشائه وسحقك داخل ثنايا كبائره، النجاة تكمن فقط في التمسك بشراعه حتى تصل لبر الأمان.. مطمع وغاية جميع الأديان، النعيم الأبدي أو الملكوت السماوي. أبانا اغفر خطايانا، واحمنا من شرور أنفسنا، وباعد بيننا وبين من تحالفوا على عصيانك.. أبانا، نحن أبناؤك، احمنا من الشرير.. احمنا من الشيطان ومن سوء أفكارنا.

يكمن عشق الإنسان للخطايا في عدم تخيُّله لكلا الجزئين الموعود بهما، من جحيمٍ ومجدٍ أعظم؛ حيث ينتابه بعضٌ من عدم الاهتمام بكل ما لا يراه، ويكتفي بما لديه من شهوات ورغبات يعتكف على إشباعها.. وهنا تبدأ الخطيئة في النضوج والتحرر من كهفها

المطمورة بداخله تحيط الخطأ بهَالتِها السلبية الشيطانية التي لا تطاق في بدايتها؛ فيكون المرء بين طريقين، إما الاستسلام وعشق الوحل حتى الإدمان أو الذهاب إلى صاحب العلاج ليعبّر عما لديه للكاهن الأب فتتعادل هَالتُه مجددًا، وهنا يكون الصراع الداخلي بين ملاكه الحارس وشيطانه على أوج الاشتعال وشرارة احتدام سيوفهما تحرق أحدهما؛ لتبقى السيادة للآخر أبد الدهر إلا لو كان الآخر كسرطان خبيث ترك شعلته الثانوية كبركان خامد ينتظر النضوج.

كنت حينها أجالس عشرات الصور للعذراء والسيد المسيح أمامي داخل الإطار الذهبي الملتهب - أرى دموعًا حاملة الشعلة - منغمسًا بحياة يسوع المليئة بلحظات الحزن والفرح، الحب والسلام، أتخيل حياته تُعرض أمامي بكل تفاصيلها أغرق فيها بكل ما لدي من قلب وعقل وحواس وعين داخلية مطمورة لا يمتلكها سوى القليل ، أستثني منها عيني الظاهرية التي أبت التعمق في حياة كلمة الحق الباقية هذه المرة، وظلت

عالقة بحاملة الشعلة - كما اعتدُت أن ألقبّها- لم يكن لها اسم أعرفه ولا سن أحدده، كانت مفتقدة لوهج الشباب رغم قلة أيامها في الحياة، كانت كمهر مبتور الأرجل دامع العينين. كانت محاطة بهالة من الانكسار لم أعتَد أن أراها تحيط أحدًا من زائري الكنسية، ولهذا اعتقدت في أولى اللحظات أنها -تلك الهالة- سبب التعلق البصري بهذه الفتاة دون غيرها من الزائرين، ولأول مرة أشعر بألم فضولي الراغب في سماع اعترافها والخوض في حياتها وإشباع هوايتي وعشقي بالاستماع وإعطاء الوعود بالمغفرة والعفو والسماح.

لم تكن هذه الزيارة الأولى لها، ولم تكن أيضًا مشاعري الملتهبة والمتلهفة للاستماع لها جديدة؛ فقد كانت رغبتي تتصاعد تجاه تلك الفتاة في كل مرة ألمحها فيها، ولكني تعلمت ألا يجب أن أجبر المرء على الاعتراف؛ فالأمر يبدأ دائمًا بالندم والاعتراف للنفس ثم التوبة أمام الرب من خلالي.

كان من ضمن أسباب تعلقي بحاملة الشعلة أنني وجدت بها ما لم أجده بغيرها، رأيت بها ملكوت

السماوات الموعود، رأيت بها كلمات يسوع:

طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأن لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ

طُوبَى لِلْحزَانَي، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ

طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأرض

طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إلى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ.

طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ.

طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ.

طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ.

طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أجل الْبِرِّ، لأن لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.

اعتقدت في تلك اللحظات أن يسوع كان يراها أمامه وهو يقول تلك الكلمات عن ساكني الملكوت السماوي، كنت أتلهف لتبشيرها بأنها من أوائل من سكنوا هذا الدير الأبدي العظيم، شعرت برغبة جامحة في سحق

وسَلْب ما تبقى من الأيام التي منحها الرب لتلك الفتاة لإلحاقها بمجده الأعظم.

كنت قصير البصر أو بمعنى آخر كانت عيني المطمورة مازالت خامدة، عوراء، عامية، كنت أنظر للأمر من جهة إلحاقها بالرب تحت أي ظرف، وتخليصها من آلامها، ولكن حين وصلت للنهاية أدركت أنه كان السؤال الأولى أن أسأله قبل التفكير في خلاصها: "لماذا الرب يبقي عليها حتى اللحظة في ذلك العذاب الأرضي؟!"

ثم إنسان عيني المطمورة اتسع أكثر وسأل بتعمق: "لماذا توجد حياة في الأصل؟"

ولوهلة شعرت بألمٍ في روحي حين ظننت السوء بعقلي المريض الآثم، وشعرت أن الرب يريد أن يرانا معذبين في الدنيا.

تلاشت أفكاري وعادت من حيث جاءت، وعدت للرغبة في الخوض في سماع اعتراف الفتاة والبوح بما داخل

صدرها، ولكن كانت تخيم عليّ فكرة أن الاعتراف قائم دائمًا على فكرة الذنب وطلب المغفرة.

وهنا داعبت عقلي الخاطرة الجديدة وذلك المأزق المؤرق الجديد، فتلاشت كافة التساؤلات السابقة وحلَّ محلها سؤال محير أكثر، سؤال بلا إجابة!

"لأي أي ذنبٍ ستطلب تلك المسكينة المغفرة؟!"

فحياتها بأكملها لا أرى فيها سوى تكفير لذنبٍ أتوسل للدنيا أن أعلمه.. وهنا فقط تمنيت من كل قلبي أن تقع تلك الفتاة في الإثم حتى تأتي وتطلب المغفرة والعفو وأن أتوغل بداخلها لأعرف ما بها من أسرار، تبًا لفضولي!! الذي أجبرني ذات يوم أن أكون الحافظ الأعظم.. تبًا لفضولي الذي جعلني ذات يوم أتمنى الخطايا للبشر للتجسس على أسرارهم.

انتزعت عقلي وقلبي من أحلامه المتيقظة المتعايشة في قلب أورشاليم وصرخات دموع العذراء وآلام المسيح ومكر يهوذا وصيحات اليهود.. كما بصعوبة

أكثر انتزعت عيني المتعقبة لحاملة الشعلة الهزيلة المرتعشة، وهمسَ في أذني بجسدٍ هزيلٍ متعرقٍ ويدٍ مرتعشة تأبى الحركة وترفض مفاصلها السيطرة، وهمسَ بتذلل وخشوع وندم جلب له المغفرة وشعرت بتدفقها داخل أوردته وعروقه قبل أن ينطق حتى:

- أريد الاعتراف.

ربت على كتفه برفق وشفقة واصطنعت ابتسامة الود والطمأنينة له، ورمقت الفتاة لمرة أخيرة كوداعٍ مؤقت ينقطع حين تأمر هي.. فقد كانت غير منتظمة الزيارات، ولكني صعقت وارتبكت عندما تلاقت عيني بعينيها.

تبدلت ملامحها الملائكية الضعيفة، وانتشرت بوجهها ملامح السخط، وتفشت بها علامات الغضب فارتعش جسدي إثر نظرتها الحادة التي خيمت على المكان، رفعت يدها اليسرى وعيناها متصلبتان علينا كأنها ترى الشيطان يقف جوارنا، ثم ببطء لاحظت تلامس شفتيها بخنصرها وكأنها تقبّله، ثم اهتز جسدها

وانتفض فجأة وفرت تهرول هاربة من الكنسية دون أن تترك أي تفسيرٍ لفعلتها، وهنا شعرت بتبلل يدي بلعاب الفتى البكّاء التائب الذي سيكون بالطبع أحد سكان الملكوت الأبدي.

- أرجوك، اجعله يسامحني.. أرجوك.

نظرت لعينيّ الفتى المتلألئتين بدموعه التي بدت لي كالبركان الثائر على وشك الانفجار لتخرج ما بها من ماء الندم البارد:

- اهدأ، الرب يغفر كل الذنوب والخطايا، الرب جميل ورحيم، الرب يحبنا ويعلم أننا خطاؤون، إذا كنا لا نخطئ فلماذا مات المسيح إذًا؟!

سقط الفتى على ركبتيه متجاهلًا أي إنسان حوله، وانفجر بركان عينيه، وانهمرت الدموع على أشدها من البكاء وأنّاته التي تحولت إلى ما يشبه بصرخات ذبيح يلفظ ما تبقى لديه من أنفاسٍ قليلة.

كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها عاصيًا بتلك الصورة المخيفة، كنت أكاد أسمع دقات قلبه وأنّات روحه وهي تنسال رويدًا، جسده المتألم كان يكرر كلمات غير مفهومة عن انتهاك الحرمات والجحيم الأبدي وعذاب الرب، أخذ يكرر في ذعر:

- سيعاقبني.. لن يرحمني أبدًا.. أتوسل إليك اجعله يغفر لي.

وضعت يدي على فمه حتى أمنعه من الحديث، ملاحظًا نظرات القليلين تُتابع بشغفِ اعترافه، هبطت أمامه على ركبتي وأجبرته على النظر بداخل عيني رغم محاولاته المستمرة لتلاشي تلاقي الحدقتين، ولكنه فشل في النهاية ونظرت له من خلف ستار دموعه، حاولت أن أطمئنه بصوتٍ حانٍ وأنا أربت على كتفه برفق:

- لا تخف بني..

نهضت جاذبًا إياه لإيقافه وتحركت به وسط الأرائك الخشبية المصطفة والعيون تتبعنا بحدقات توشك على الانطلاق من مقلاتها، وخطواته المتعثرة وخطواتي المتعجلة حتى تمكنت من استباقه للوصول لغرفة الاعتراف الملحقة بالكنيسة، وساعدته على الجلوس، ومن خلف الستار الخشبي جلست و بدأت في إتاحة المجال له لبدء حديثه وإخراج ما لديه من أسرار تعذبه وتكاد أن تفتك به، كنت أتمنى أن أقول له إن يسوع غفرَ له وكلي ثقة بأنه فعل؛ فلم أرَ ندمًا بهذه الدرجة لدى أي معترف من قبل.

وبدأ يقص لي حكايته التي بدت إلى حدٍّ كبير عادية وشبيهة للكثير، إلى أن فاجأني ببعض المفاجآت التي لم أكن أتخيلها.. كما لم أكن أعلم أن يسوع قد بدأ في تجهيزي أثناء اعتراف الفتى لأكون من المختارين لديه، ويمنحني سرًّا من أسراره العظيمة وينعم عليّ بالعين المطمورة ثم يبعثني الحافظ الأعظم.

فقد عشت طويلًا أعلم أن لكل إمرئٍ على وجه الأرض اختياره للسماح له باللجوء لسفينة نوح والحماية من

الطوفان، وعلمت أنني صرت على أتم استعداد لتلقي اختباري.. أسأل الرب أن يكون قد وفقني في اختياري ولا أكون قد أسأت الفهم واتبعت الشيطان بدلًا من الرب، اغفر لي أبي إذا كنت مخطئًا.

حكاية الفتى التائب بدأت منذ عشر ليالٍ بمنتصف الليل وقد ساد الصمت والظلام بمحيط القرية التي لم تعرف معنى العشاء سوى بأسرتهم الباردة وجدرانهم الرطبة كانت الأمطار حينذاك تنهمر على أراضينا كطلقات الرصاص التي جاءت من السماء تعبّر عن غضب الرب لما سيحدث بذلك اليوم.. كنت أرمق الظلام وكلمات يسوع ترن بأذني، أعلم أن الوحشة متكررة يوميًا، ولكن اليوم كان ظلام غضب الرب علينا.. كان اليوم الذي انطفأ فيه نور خير أعمالنا، وتبدّل بميلاد شيطان جديد مهجّن من بقايا البشر.

"فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ"

أبانا الذي في السماوات، ارحمنا.. ارحم عجزنا والطف بنا.. انطفأت أنوارنا وصرنا عميان وسط وحوش تفتك بنا.. احمنا يا أبانا.. آمين..

لم يكن الفتى إلا سائق "توك- توك" فقير، لم تمنحه الحياة الفرصة الكاملة لاستكمال تعليمه، وظل بمهنته الصغيرة ومكاسبها المتواضعة شهرًا تلو الشهر متمنيًا من يسوع أن يمنحه فرصة أكبر من ذلك لتحسين أموره المادية، وأن يهبه الزوجة التي يراها مناسبة له ولظروفه غير المستقرة التي تردت بصورة مبالغ فيها بعد أن مات والده قرابة الثلاث سنوات، وظلت والدته طريحة الفراش في انتظار الضوء الأبيض للقاء الرب إثر تآكل جسدها بفعل المرض الملعون.. أقوى بشارة طبية يلقيها الرب لقرب مجده الأعظم.. لا يفسر محتواها سوى حامل المرض الملعون.

حين تثاقل جفناه وقررَتْ إنهاء عمله اليومي بقوتها المفرطة لفشلها مرات عدة في التفاوض معه لرفضه وإصراره استكمال عمله رغم أنه قد تجاوز الثماني عشرة ساعة من العمل المتواصل غير المنقطع.



استدار الفتى بمركبته، وقرر الإنصات لجفنه وعقله وعضلاته ومنحهم سويعات قليلة من النوم المتوتر القلق لبث قليلٍ من الطاقة بهم لتبدأ رحلته في البدء من جديد، إلى أن قطع طريقه الشابان بابتسامتهما المعتادة فتوقف لهما رغم تحول حالته من ثقل في جفنيه لثقل في رأسه بأكملها التي صارت تزن خمسة أطنان.

أوقف مركبته أمامهما وهو يتمنى بداخله ألا تتوقف حتى لا يمنح لجفنيه بالتفتح لمزيد من دقائق قد تفتك بما تبقى بداخله من طاقة توشك على الانعدام.

قال أحدهما وكان يدعى حسين:

- فلتأخذنا في طريقك.

ابتسم له وبدون جدال أشار لهما بالدخول، وأدار مركبته الصغيرة مجددًا، واستمر في التحرك بعدم انضباط في طريقة الضيق الفاصل بين امتداديّ عيدان القمح غير المنتهيين يمينًا ويسارًا. انشغل عقله كثيرًا



داخل أحلام يتوسل لها عقله بالتداخل معها فلم تلتقط أذنه سوى كلمات قليلة نطق بها لسان مايكل وهو يمنحه حبة مخدِّرة وصفها بأنها ستكون كالرحلة ذات الاتجاه الوحيد الذي لا عودة منه.

نظر الفتى في المرآة الأمامية ولاحظ تناوب الصديقين على سيجارة الحشيش بنهَّم ونسي للحظات الطريق، وتلاعبت به مركبته، ولكن عاد له التركيز زئبق ترمومتر التحم بنحاس منصهر فجأة، ثم بدأ يتلاشى مجددًا كالتحام النحاس الملتهب بجليد قادم من قاع بحار أقطاب الأرض.

انتفض حسين لفقدان الفتى السيطرة على المركبة للحظات، ثم حاول أن يبث في قلبه نوعًا من الاطمئنان لإعادة تحكُّمه بها، وشرع ضاربًا كتفه، عارضًا عليه حبة أخرى ستجعله يستعيد وعيه سريعًا.

كانت الحبة شديدة الاحمرار تلمع أمامه كحَجرٍ كريم نادر، تعالت شهوته تجاهها وألحَّ عليه فضوله بالتجربة

والانهيار بداخلها، متمنيًا دخوله بمرحلة سبات لا عودة منها.

لم يكن يعلم كيف ولا متى انتزعها منه بقوة وألقى بها داخل جوفه، ليرتعش الطريق أمامه وتتضاعف الرؤى، ويتحرك دون وعي ودون إرادة؛ فصار الطريق أمامه كنفقٍ مظلمٍ متعدد المنحيات.

ولوهلة انتفض عقله وسيطر سواد الليل على ما تبقى بداخله من أفكار ضامرة فتبدل يساره بيمينه، وعكس طريقه وسط ضحكات وأنَّات النشوة ممتزجة برائحة أفواهم العفنة، إلى أن رأوا من بعيد الساقية المهجورة العائد تاريخ نشأتها لعهد الملك الفاروق والتي هجرَها البشر لحدوث جريمة قتل بشعة في المنطقة، وانتشرت شائعة ما يسمى بشبح النداهة وخلافه من خرافات المجتمع الريفيي؛ فصارت باختلاف العقود كالموقع الأثري الملعون أو كقصر البارون المنبوذ!

أوقف الفتى مركبته وألقى بنفسه خارجها وفمه لا يكف عن إصدار الضحكات، وظل تبادُل المواد المخدرة

مستمرًا كمثال بذيء للوحدة الوطنية؛ فالفضل يرجع لسيجارة الحشيش، رمز توحيد القطرين في مصر الحديثة.

بدا لحسين من بعيد ضوءٌ خافتٌ منبعثٌ من خلف تشققات عيدان القصب، رآها بصورة أثارت في نفسه رعب طفيف بفضل غياب عقله التام وفضول أكثر جذبه الضوء ليتحرك ناحيته في صمتٍ بالغ كالسائرين نيامًا.

همس مايكل في أذن الفتى:

- تفتكر النداهة تكون ندهته؟!

ثوانٍ معدودة وانطلقت ضحكاته واستند على كتف الفتى وهرول محاولًا بكل قوته التحكم في توزانه وهو يتبع حسين بسرعة ليلاحقه تجاه الضوء القادم من مكانٍ مجهولٍ.

بينما الفتى ظل راقدًا أرضًا وتحسس بجانبه وجد نصف سيجارة أصدقائه مدهوسة قدمًا، ولكنها مازالت

تحتفظ بشعلتها، أمسك بها وبدأ في تناول أنفاسها بشغفٍ، نفسًا تلو الآخر.

وصلا مثال الوحدة الوطنية بقيادة موحد القطرين العصري إلى مكان الضوء؛ حيث بدا كعُشّة فارغة تمامًا سوى من مصباح جاز صغير معلق، وكومة من القش موضوعة أرضًا. مشهد أضفى على نفوسهم لمسة فضول أكثر انطفأ بريقها بنظرة من مايكل فهمها حسين دون أن يتفوه أحدهما بكلمات، وانطلقا ناحية الفتى المعترف التائب بسرعة، وجذباه من يده وأدخلاه مركبته الصغيرة هائمًا في عالم آخر، يوجهانه في طريقه غير المرصوف حتى وصلا به على بُعد بضعة أمتار من المستشفى الخاصة التي أقامها واحدٌ من رجال الأعمال سيئي السمعة كنوع من غسيل الأموال.

قال حسين وزفيره كسحابة أمام رأسه:

- المفترض أنها ستخرج الآن، إنها لا تتأخر أبدًا.



رمق الفتى كليهما وعيناه شِبه مغلقتين تمامًا، ويكاد لسانه ينطق بكلمات قطعها صوت شخيره الذي ضحك على إثره مايكل وقال:

- سننتظرها حتى لو تأخرت قرونًا.

بعد مرور عشر دقائق تقريبًا، خرجَتْ من باب المستشفى شابة بدت لهم في منتصف عِقدها الرابع بأنوثتها التي حاولت طمرها داخل ملابسها الفضفاضة وشعرها المغطى أسفل طرحتها الطويلة، تتحرك بخطوات متعثرة مرهقة،

كلما نظرت للساعة ازداد ارتجف قلبها رعبًا وخوفًا، كم طلبت من المسئولين عن ذلك المكان ألا ينتهي العمل في هذه الساعات المتأخرة، ولكن سيظل القطاع الخاص كما هو لا ينظر لشيء سوى مصالحه، داهسًا كل ما يراه لا يهمه في شيء؛ فلم تتحمل المستشفى تكاليف فريق تمريض ثالث بالمكان كما طلبت منهم الفتاة، وأصرَّ المدير على أن الفريقان فقط سيتحملان العمل، اثنتا عشرة ساعة لكل منهم، ومن لا يريد



الاستكمال فليرحل في الحال -حسب قول المدير-؛ فكان صمت الفتاة هو الرد الظاهر لسبَّات عديدة كتمتها داخل صدرها، وتحملت عناء التحرك ليلًا كل يوم لتصل بيتها مقابل الحصول على مبلغ لا يصل للألف جنيهٍ لتكمل احتياجاتها، لعلَّ الله يرزقها بزوجٍ صالحٍ في أي وقتٍ؛ فكانت تعلم أنها يجب أن تكون مستعدة لتلك اللحظة؛ فأمها لن تستطيع تحمل عناء مصاريفهما؛ فلا تملك من المال ما يعينها على ذلك، حتى عندما رحل أبوها في حادثة القطار الشهيرة قبل خمسة أعوام، لم تمنحها الحكومة سوى خمسة آلاف جنيه كتعويض عن الحادث.

تلقى الفتى لكمة في كتفه لإيقاظه من نومه الطفيف منتفضًا معها جسده وهمس له حسين:

- يلّا..

تحرك كالهائم لا يرى أمامه، يتلقى الأوامر من الجالسين خلفه فينفذها مسلوب الإرادة وينصت لتردد صوت ضحكات مايكل، إلى أن لاحظت الفتاة مركبتهم

الصغيرة السوداء المقتربة منها ونظراتهم إليها وتحرشاتهم اللفظية لها، فأسرعت في خطواتها وارتعش ثباتها وتساقَط عرقها وجف لعابها والتهب قلبها ذعرًا، وصارت تهرول في رعبٍ تبحث عن المساعدة، ولكن لم يكن هناك أي إنسان بالمكان القريب.

كانت تهرول وهم خلفها يضحكون، هي تصرخ وهم يتكاتفون، تناجي الخالق وهم للشيطان ساجدون منساقون.. لم تشعر بشيء سوى بوجع طفيف أسفل مؤخرة رأسها، وقبل أن يصل لمخيلتها أنها تلقت ضربة شديدة القوة كانت قد هامت في عوالم أخرى تحت قبضتهم.

لم يمر الكثير من الوقت حتى عادت إلى وعيها مقيَّدة عارية في أحضناهما، صرخات لا تنقطع، تتلقى الصفعة تلو الأخرى وصراخها يزداد مع ضحكاتهما وثقتهما بعدم اقتراب أحدٍ من الساقية المهجورة، تناوبا عليها بانتهاك عِرضها الطاهر.. تتلقى القضيب تلو الآخر، وشرفها المثالي يُهدَر.. دماؤها متزامنة مع دمعها..



تتلوث طهارتها بنجاستهما، إلى أن سقطا نيامًا بجانبها والفتى أمام كل هذا يشاهدهما بولع ولهفة ورغبة المشاركة ولسببٍ لا يعلم، لم يشعر بنفسه سوى وهو بداخل مركبته مبتعدًا عن الساقية تاركًا الجميع، متجاهلًا نداء صديقيه لنيل نصيبه منها، ولكنه ظل يتحرك بمركبته كالمجنون وهما متعجبان منه، ولكنه لم يشغل حيزًا كبيرًا من تفكيرهما وظلا بوحلٍ مخدراتهما غائبين، ولعِفة فتاة طاهرة منتهكين.

توقف الفتى عن الحديث بعد أن سرد حكايته كاملة دون انقطاع.

كان يحكي بكلمات متداخلة متسرعة كأنه يريد خلاص صدره من ذلك الثقل،استبدَّ به التعب، فيضان عينيه لا ينقطع، ورعشته لا تتوقف.

حكى إلى أن أزال من على عاتقه صخرة بلال المؤذِّن، وتنفَّس الصعداء وارتسمت ابتسامته ليس فرحًا، ولكن راحةً لمشاركتني إياه فعلته مع صديقيه.

كنت حينها لا أعلم ما التصرف اللازم فعله، لم يأتِ في بالي يومًا أن يأتي لي معترفًا يملك ما ملكَ ذلك الفتى.

إعلان سر اعتراف لأي مذنبٍ أمرٌ شديد الحرمانية، لا يمكنني تحمُّل سؤال يسوع عنه، ويجرمني أمام الكنسية، ويكفي لنفيي تمامًا منها، ولكن ماذا في هذا الحال؟ ضحية اغتصاب أُنتهك عرضها بوحشية لعقول مُخدّرة غارقة في بقايا آثار وحلها..!

صحيح لم يكن الفتى ضمن من انتهك جسد الفتاة، ولكنه كان بإمكانه إيقافهما، أو عدم إيصالهما، أو عدم التوقف لهما في بادئ الأمر.. أو .. أو.. أو..

رمقني متلهفًا منتظرًا كلماتي الآتية بالعفو والمغفرة المحمولة من الرب، ولكنني لم أستطع قولها، ابتلعت لعابي وعقلي يغرق في أفكاره، باحثًا عن صيغة ملائمة للحديث في تلك اللحظات الحرجة.

- إذا كنت تريد الغفران، أصلِح خطاياك.

- أخبرتَني أنه مات من أجلنا.

- لن يغفر لك حتى تصلح ما فعلت.

- لَم أغتصبها..

- ولكنك لم تمنعهما عنها..

- كنت خائفًا..

- بل كنتَ جبانًا..

- أرجوك، اجعله يغفر لي..

- ليس قبل أن تصلح ما فعلت، إن كنت ستصلي فقط من أجل أن يزيل عنك الرب تلك المصيبة، فأنت حقًا في مصيبة!

- ماذا أفعل؟!

- أبلِغ عنهما..

- مستحيل..

- إذًا لا مغفرة لك هنا..



- أرجوك..

- ارحل..

- أتوسل إليك..

- ارحل، الرب غاضبٌ عليك..

أعلم أن كلماتي كانت شديدة الحدة، وأعلم أيضًا أن هذا ليس ما كنت أعد نفسي للحديث بشأنه، ولكنني لم أستطع إيجاد كلمات رقيقة لتخفف عنه، كل ما كان يشغلني هو تلك الفتاة البريئة وما فعلوه بها، ليس من حقي توزيع ميثاق الرحمة على البشر، ولكنني أيضًا إنسان، كان لابد لي من عمل محاولة بائنة لإصلاح ذلك الخطأ.. طالما لا يمكن البوح بما أعرفه من أسرار المعترفين؛ إذًا فكان لابد من المحاولة لإجباره على الاعتراف أمام جهات التحقيق.

مرت دقائق والفتى صامت لا يتحرك، غاضبًا من حديثي، كان لا يود أن يسمع كلماتي، كان يريد صك

الغفران والرحمة ليتمكن من النوم ليلًا، ابتلع لعابه بصعوبة وتبدلت ملامحه لأخرى شيطانية قاسية:

- لن أفعل!

ثم صمتَ لحظات وبعدها أردف:

- أنت كاذب..

ونهض من مكانه مهرولًا نحو الخارج دون أي كلمة أخرى.

ظللت كالمثبَّت بمقعدي مكبلَ الأيدي، مشلول الأرجل، أرى ما حكاه الفتى أمام عيني.. كل مشهد وصفه أراه.. أستشعر ضحكاتهم.. أشتم خمورهم.. وأتألم لصرخاتها.. أتوجه لأنَّاتها التي تسلِّم روحي لعجزها.

أين أنت يا عظيم لترى ما يحدث لأبناءك جراء اتباعهم الشيطان؟! هل تسامحه بعدما اعترف؟! كم أنا بحاجة لنسيان ذلك الاعتراف الذي ظننت حينها أنه سيكون أشدهم فزعًا ووجعًا..



بدأت أستشعر حركة دورتي الدموية تتدفق بأوردتي بصعوبة، تحركت وتحت تمثال المسيح جلست، وارتسمت الصليب على صدري مناجيًا إياه:

"أبانا الذي في السماوات، أنت الرحمة.. أنت المغفرة.. سامحنا.. نحن أبناؤك.. الضعفاء دونك.. الأقوياء بك.. اهدنا إليك.. وضمنا إلى أحضانك..

اصفح عن زلاتنا.. واحمِنا من الشيطان.. قرِّب الخطائين من أولادك إليك.. واغفر لهم فهُم نيامٌ داخل ظلمات شيطان."

لا أعلم متى انتهى دعائي، ولا أعلم كيف تحركت من مكاني.. فقدت الإحساس بالزمان قبل المكان، كنت حينها في سواد أرضٍ لا أعلمها، كنت أراه أمامي.. ذلك التائب يصرخ فيَّ بذعرٍ يترجاني أن أرحمه وألا أعذبه، كان يراني كملاك الجحيم، يتجنب حتى النظر لي.

كنت أحاول الاقتراب منه رغم نفوره مني، شعرت بغليان نيران جحيم تجري في أوردتي.. شعرت

برغبتي في سحقه بين أناملي.. كان يصرخ ويقول سامحني.. وأنا لا أريد مسامحته.. كنت لا أعلم مَن أنا حينها.. كنت لا أرى سوى صرخاته التي لا أريدها أن تتوقف.. رغمًا عني وجدت نفسي أبتسم وصرخته تزداد أكثر فأكثر، إلى أن صرت أضحك بقوة وهو ينهار أمامي..

كانت الأرض تبتلعه تدريجيًّا لغريق بحر رمالٍ أبت التوقف ونشط تحرُّكها فجأة، كان يحاول الإمساك بي، ولكني تركته وصرت أضحك أكثر فأكثر.

لم يتبقَ سوى رأسه المعلَّقة على حافة الغرق، أمسكتها بكلتا يديَّ وهمست به:

"كان يجب أن تنقذها!"

لم يزد سوى كلمتين متلاحقتين بشلال دموع غير منقطع..

نظر وبقلب عيني قال:

"سامحني يسوع!"

لم يمنحني ذلك الحلم أو الرؤية -أو سمِّه كما تريد- فرصةً أكثر للفَهم.. وانتفض جسدي على سريره الذي لا أعلم متى زرته وكيف حُمِلت إليه، كان بجانبي أحد الخدم يقول:

- إن الفتى التائب مات منذ ساعات غرقًا في مياه ترعة الأرض المهجورة.

- يا إلهي!

تمتم فمي دون إرادة:

- أنا من قتلته.

تعجب الخادم وتساءل في حيرة:

- ماذا تقصد أبانا؟!.. إنها مشيئة الرب, فلتصلِّ من أجله أبانا، لا تنسَ أنه جاء لك بالأمس لتكفير ذنوبه.



التفتّ له وأنا أنصت لحديثه دون أن أردّ، كنت عاجزًا عن الإجابة وذهني شارد في تلك الرؤيا الغريبة التي لا تفسير لها، ولكن لم يكن هذا وحسب ما يؤرقني، بل ذلك الفتى قبل أن تبتلعه الأرض وهو يصرخ فيَّ باسم الرب.

منذ ساعات في منامي كان يظن الفتى أنني أنا يسوع.. ظن فيّ الخير رغم أنني لم أكن أكثر من شيطان قاتل، توهم وتوسم داخلي روح العظمة، وأنا أشرع لإحراقة حيًّا، وحتى إن كان كل هذا صدفة، وأنني قتلت الفتى في منامي لأنني تمنيت ذلك بسبب خطيئته التي سبق واعترف بها أمامي، فمَن قتله في الحقيقة إذًا؟!

وكما قال "نجيب محفوظ" إن آفة حارتنا النسيان؛ فبالفعل بدأ الجميع في نسيان الأمر، واستمرت لديهم تلك الرهبة البائسة وليدة شبح عقولهم والتي أسموها النداهة.. احترسوا من ظلامٍ فلم يقربوه قَط، تحاشوه رغم عدم اقترابهم منه أبدًا، كانوا كمَرْجَين لا يعرفان الالتقاء ولكنهما قررا الابتعاد عما هما مبتعدان عنه

في الأساس.. كانت وسيلة دفاعية عقيمة لا تنم سوى عن الجبن والضعف، جريمة بلا قاتل الجميع اشترك فيها حينما ظنوا أن الفاعل كائن من عالم آخر.

أما أنا كنت غيرهم، كانت صورة التائب لا تفارق عقلي، كنت أشعر بالذنب تجاه ذلك الفتى، أشعر بالذنب لأنني رغبت بداخلي في أذيّته، كنت أرغب في عدم مغفرة الرب له، كنت أتمنى بداخلي أن يسكن الجحيم بصورة أبدية، كنت لست حريصًا على الاستماع للاعترافات الهزيلة.

دون تركيز بعقلٍ غائب بوعي آخر، أتوهم في نفسي العظمة التي وصفني بها الفتى قبل وفاته.. كان المعترفون مستمرين في الحديث، وأنا مستمرٌّ في التخيل لأناملي وهي تسحق رؤوس المجرميين.. رويدًا رويدًا صارت مشاعري تتبدل،

من عدم الاهتمام للإنصات للاعترافات، حتى وصلت للخوف من سماعهم، كنت أخشى لو أن الفتى كان

محقًّا، وأنه بالفعل قُتِل لأنني كنت غاضبًا.. كنت أخشى لو كنت أقتلهم دون أن أدري.

حديثي بالتأكيد غير مقنع، ولا أعلم أنا حتى لماذا كنت أظن حينذاك ذلك الأمر، ولكني بداخلي أعلم أن هناك أمرًا ما مازال غير مفهوم؛ فعملي داخل الكنسية وعشقي لسماع الاعترافات تحولا في وهلة لجحيمٍ يطاردني وشعورٍ بالذنب تجاه الجميع.

كنت أظن أنني وسيطٌ روحيٌّ بين الرب والأبناء، ولكن الفتى في المنام جعلني صورة أكثر عظمة..

حقًا أنا لا أفهم شيئًا..

يوم يمر تلو يوم..

واعتراف تلو اعتراف لا أنتبه له وأكتفي بالعفو عن ذنبٍ لم أهتم حتى لسماعه..

اختلاسات رؤى أو كوابيس لا أذكر منها سوى لمحات يشقعرّ لها بدني..

كنت جالسًا أراقب الحاضرين لجنازة التائب، يتهامسون فيما بينهم عن شبحهم، وتكاثرت أقاويل الخرافة والوعيد وقُرب الانتقام وغيرها من أشياء.

بداخل ردائها الأسود رأيتها من جديد حاملة الشعلة تقف تنظر لي لأول مرة، كنت أخشى الاستماع لها، كنت أخشى أن يكون هناك سرٌّ كامنٌ بداخل هذا الكيان الملائكي يجبرني على قتلها بقلبٍ يأبى العفو عنها.

تجنبتها رغم ابتسامتها، وابتعدت عن المكان وقلبي ينتفض، كنت أرجو أن ترحل من هذا المكان أو من القرية كلها.

لا أعلم لمَ كان بمرور كل ساعة يترسَّخ بداخلي إحساس أن الرب منحني سُلطة هائلة على هذه القرية، كنت دائمًا أتمنى من الرب أن يجعلني مميزًا، وفي لحظة تمنيت لو لم يستجب.. أشعر أن الرب قد حقق أمنيتي تلك بأن جعلهم تحت تصرفي الكامل.. جعلني قائلًا، نائبًا.. لا أعلم.



كنت أشفق على جميع أهل القرية؛ فأنا حاكم جديد بائس غير عادل؛ فالعدل سمة غير بشرية، الرب وحده هو القادر على منح صكوك الرحمة للجميع دون تفرقة، أما أنا؛ فلن أستطيع ذلك.

رغم كون الأمر مجرد فكرة، إلا إنه كان كالعذاب، ولكن في الليلة السادسة، ارتسمت الصليب على جسدي، وبدأت في تلاوة الصلاة، وناجيت يسوع بأن يرفع عني بلائي ويرشدني للحق ويزيل عني فكرة العظمة التي تحيط برأسي، وكنت لأول مرة أطلب منه ألا يجعلني مميزًا أبدًا ولا يصطفيني لأي مهمة لا أقوى عليها.

في منامي كان المشهد يتكرر من جديد؛ نفس الأرض تكرر ابتلاعها للتائب وصراخه لا ينقطع، ولكن الاختلاف الوحيد كان همس أحدهم بأذني:

"لا تهرب من حقيقتك أبونا، تمنيتَ الاصطفاء من الرب فصار لك الآن."

عندما التفتّ لصاحب القول كان قد تلاشى، وعندما نظرت مجددًا للتائب كان قد أُبتلِع، لم يمر وقت طويلٌ قبل أن أستيقظ قبيل الظهيرة والخادم يطرق الباب.

رمقته بعدم اهتمام –فليسامحني الرب– قبل أن يوجّه لي الحديث ويعلن عن رغبة أحدهم الملحّة في رؤيتي.

قُلت له:

- ألا يستطيع ذلك المعترف الانتظار قليلًا؟

أجاب الخادم:

- لا أعتقد ذلك أيها العظيم!

صدمت للحظات قبل أن أسأله في عجل:

- ماذا قلت؟!

لمحت تحير الخادم قليلًا وتفشى قلقه قبل أن يجيب في حرص:



- أقصد أن حالته صعبة، يود مقابلتك.

صرخت فيه مسلوب الإرادة:

- قلتَ إنني عظيم؟! ماذا تقصد؟!

لن أكذِّب عيني، كان حقًا لا يدري ماذا أقول، وبدأ يظن أنني أهذي.. كان لابد أن أهدأ وأكفّ عن تخيُّل ما لا وجود له؛ فقبل أن يقول شيئًا أمرته بالخروج في الحال من الغرفة، وأخبرته بإعلام الزائر بأنني دقائق وسأكون معه لأنصت له.

كان عقلي سينهار إذا ظللتُ في هذه الأفكار دون نهاية، كان لابد من التوقف مهما كان الثمن، وللحظة سخرت من عقلي لما هيأه لي من كوني أنا حاكمًا أو قائدًا أو عظيمًا مكلفًا من الرب بالتحكم في هذه القرية.. وحاولت إقناع نفسي أن ما حدثَ للتائب كان مجرد صدفة.. قد يكون عقلي رغبَ في قتله، ولكن الأمر في النهاية لا يتعدى كونه صدفة.

ثم شعرت بألم ضميريّ بحت يحثني على الاستمرار في المهمة التي اصطفاني لها الرب بأن أكون الوسيط بينه وبين العباد.

خرجت محاولًا أن أتناسى كل ما حدث وكل شيء وأنا على أهبة الاستعداد للاستماع لذلك الزائر وتقديم التوبة له والمغفرة، ولكن..

ياليتني ما فعلت ذلك..

حقًا أنا نادم..

اغفر لي..

اغفر لي ربي..

حقًّا لم أكن أعلم..

أقسم إنني كنت جاهلًا بإشاراتك..

كنت جاهلًا بلمحاتك..

لم أكن أرى الشيطان في أسمائهم..

كما عيني المطمورة لم تبصر قلبك في صدورهم!

كنت جاهلًا بإشاراتك.. كنت جاهلًا بلمحاتك!



- 4 -

ريتشارد

انزلقت داخل ثنايا النوم ومازلت أردد نفس الكلمات التي اختتمت بها القراءة لليوم الأول، وأنا أحاول ألا أفكر كثيرًا، لأول مرة كنت أريد أن أعيش متعة أن أقرأ كتابًا دون أن أحاول استنتاج إلى أين سيقودني.. لطالما علمت النهايات من مقدمات الأعمال الأدبية، ولكن هذه المرة أشعر أنني غير قادرٍ على ذلك. الأب اليوم حائرٌ بين أمرين: إما البوح بما يخفيه، أو الاستمرار في كتمانه. كما أنه عالقٌ بين كونه إنسانًا وهبة الرب العظيمة ومقتل الفتى وعلاقة ذلك بالكابوس مجرد صدفة لا أكثر. لا أملك استنتاجات عما ستحمله الأوراق المقبلة أول مرة في حياتي أكون حائرًا بين أمرين لا أعلم أصدقهما أو أرفضهما لن أنكر أنني فشلت في توقُّع الأحداث وفي النهاية وجدت نفسي في قالب النوم غارقًا.



رأيت في منامي خالد بن الوليد وهو ينظر لجنوده وهم مذعورون من قوى سيوف المسلمين بعد سحق جيوشهم أمامهم وهو يفكر ويعلم أنه إذا سمح للهزيمة أن تنال منهم مجددًا بعد غزوة بدر لن تقوم لهم قيامة مرة أخرى، وعلى الناحية الأخرى كانت قد برز غرور الإنسان وجشعهم حين خالفوا الناظرين الأمر وبدأوا في جمع الغنائم ليمنح اللّٰه عباد الأصنام فرصة للعودة عقاب المسلمين بخلاف أوامر محمد.

ظل يبتسم وهو يرمق جنود محمد وهم يهبطون رويدًا رويدًا ينقضون على الغنائم، وانتظر أكثر إلى أن بدأوا في ترك أسلحتهم، وهلة أخرى وكانوا في عالم آخر ورؤوسهم تنفصل عن أجسادهم بسيوف خالد وسَريّته.

كان درسًا إلهيًا للبشرية : ألا تغويهم الأطماع عن هدفهم الأسمى, رغم قسوة المشهد إلا إنه كان عادلًا جدًّا.

انتفضت فزعًا وجرس الباب ينفض الجدران وفكرت أنه من أول الأشياء التي عليّ فعلها بتلك الشقة هو تغيير ذلك الشيء الذي سيوقف قلبي ذات يوم. تحركت غير مستوعب أن يدق بابي أحدُهم، وكأن المرقد استطال بي وأنا أفكر في ابتلاع الأرض للفتى التائب -كما قيل في حديث الأب حين نهض بأنه قد تلاشى داخل أحشاء المياه الراكدة- أفكر في كون الحديث مجرد رواية كُتِبَت بيد أحدهم.. ولكن حتى لو كانت كذلك، لا يهم.. فأنا عشقتها وبقيت ثغرة مفتوحة، وستظل هكذا دائمًا: ماذا إن كانت فعلًا حقيقة؟! ولكن سيكون من الحماقة الحكم على شيء في بدايته.

فتحت الباب وجدت أمامي الفتاة العادية التي رأيتها سابقًا، ولكنها تغيرت كثيرًا هذه المرة؛ فبكل اختصار صارت غير عادية. وضعت رأسها بقالب من المساحيق التجميلية وصارت تشع جميع الألوان. لم يكن قميصها محكم الغلق وبرز لي بداية مفرق تدييها وفوقه صليبها الذهبي البراق، شعرها تحول من الأسود إلى

البني المحمرّ، واكتسب نعومة مزيفة بمساحيقها ذات الروائح النفاذة.. قامت بقتل كل شيء شعرت أنه جذاب فيها، وحملت بين يديها صنية طعام، وقالت مبتسمة:

- عارفة انك جديد هنا.. أنا وامي عملنالك الغدا!

كانت المرة الأولى التي يعرف فيها الصداع عنوانًا لرأسي، وظل يضرب بها كأمٍّ وجدت أخيرًا طفلها الضال.. استوعبت حديثها بصعوبة كبيرة، وردت عليها مستفسرًا:

- أمك؟!

كانت واقفة على بعد عدة درجات من السلم، وحين سمعَتْ اسمها هرولت صاعدة وبصوتها المرتفع دائمًا دون سبب واضح، صرخت قائلة:

- منورنا يا حبيبي.. ده أول ما عـــ..

ظلت قرابة العشر دقائق في حديثٍ ترحيبيٍّ ساذجٍ لا أستطيع سماعه، وعينا الفتاة ترمقانني وهي ترى رعشة حدقتيّ والصداع يشتد عليّ.. أسمع همهات وهمسات كأن أحدهم يصفَّر في أذنيّ بقوة يصمني عما حولي، وهنا تذكرت الفتاة حين قالت لي إنهم أحضروا لي الغداء؛ فقطعتُ حديث أمها وتساءلت حائرًا:

- غدا ازاي؟!

تستعد أمها لتشرح تفاصيل الغداء وبراعة ابنتها -ست البيت- في قدراتها وغيره من الحديث المعتاد الذي ظلت تتدرب عليه طوال الليل لتلقيه في وجهي مرة واحدة، ولكنني لم أدع لها المجال كما لم أنتظر إجابة للسؤال الأول وألحقته بسؤالٍ ثانٍ مستوضحًا الأمر أكثر:

- هي الساعة كام دلوقتي؟!

بعد مدة صمت طويلة، أجابت الفتاة –والتي كانت أقل ثرثرة من أمها، أو ربما أمها أمرتها بأن تلتزم



الصمت لأن الرجال يحبونهن هكذا، كما أنها بكل تأكيد مَن أقنعتها بدفن جمالها خلف تلك المساحيق- قائلة:

- اتنين العصر.

كيف نمت كل هذا الوقت؟!

ولماذا أشعر أن جسدي مازال بحاجة إلى الراحة؟

و ما تلك الهمسات المتزاحمة في رأسي؟

خرج من بين شفتيّ سؤالٌ لا أعلم كيف، وظننتهما لم تسمعاه ولكن خُيِّبَ ظني!:

- ازاي كل الوقت ده عدى وانا نايم!

اقتربت الفتاة أكثر وجلست على الكرسي بجانبي ونظرت لعيني طويلًا جدًّا وقالت:

- هو المكان الجديد دايمًا كده.. بكرة هتتعود.

انسحبت أمها كما علمت أن ذلك سيحدث، ورأيت نفسي أنغمس في الفخ كما أعدتاه بالضبط.



- عندك شاي يا حبيبي؟

هززت رأسي قائلًا:

- لا..

تصلبت ملامح أمها وهي تسمع النفي القطعي للحديث فشعرت بإساءة أدبي نحوها؛ فأسرعت محاولًا إصلاح الأمر :

- بس عندي قهوة، لو تحبوا أقوم...

ابتسمَتْ كثيرًا، ولم تنتظر حتى أن أكمل حديثي ونهضت تهز كل ما فيها وصرخت كعادتها:

- هايل!.. والله ما انت قايم، ده بيتنا يا حبيبي!.. أنا هروح أعمل لنا تلات كوبايات علشان تكلمنا عن نفسك شوية، إحنا هنبقى أهل.

حاولت تتسارع في حركتها لتفسح المجال لي ولابنتها لبدء حديثٍ قد لقنتها إياه، ولكن الفتاة حقًا صدمتني حين قالت:

- ماتخافش أنا بريحها بس، اطمن..

صمت كلانا لحظات، حاولت إيجاد الكلمات داخل معجم عقلي، ولكنها أردفت:

- مالك؟! مشتت ليه كده؟

كيف أجيب على سؤال لا أعلم جوابه؟ إحساسي كان لا يُوصَف بكلمات تُنطَق أو تُكتَب.. لا أفهم هل كان فرحة أم حزنًا، وربما تكون حالتي هذه بسبب أنني لأول مرة أشعر أنني طبيعي.

- ولا حاجة صدقيني، أنا بخير.

أمسكت يديّ برفق كبير وللحظة عادت تشبه فتاة الريف بنفس لمستها وحنانها وهمست قرابة أذني:

- حاسة بيك وعارفة انت حاسس بإيه.. اصبر ماتتسرعش

- يعني إيه؟!

لم تجب عليّ والتزمت الصمت والأرض تهتز من تحتنا لتنبهنا بعودة أمها حاملة ثلاثة أكواب مختلفة الأحجام من القهوة.

- عملتلكوا القهوة.. بس نصيحة ماتجبش من عند عم بيومي تاني ده حرامي والبن بتاعه مش حلو،ابقى روح بعد كده لشمس اللي على أول الناصية عندها شوية بن من اللي يحبهم قلبك، حتى لو مش عارف ممكن بنتي توريهالك.

قالت الفتاة التي لم أعرف اسمها حتى الآن:

- مش كل حاجة جوانا في لحظتها بنعرف نوصفها، بنحتاج وقت عشان نعرف نعبّر..

رمقت الأم وابتسمتُ لها فبادلتني الابتسامة نفسها وسألتها:

- إلا ماتعرفيش مين كان ساكن في الشقة دي قبلي يا أمي؟!

لاحظتُ ارتباك الأم وكأن موهبتي في قراءة الأشخاص لم تختفِ كلها، ومازال هناك بقايا ظلت عالقة بي، ولكن الفتاة ظلت ثابتة تنظر لي بابتسام، وحرَّكت شفتيها ترسم كلمة دون صوت: "عنيد!"

رأيت محمود يقف على باب الغرفة يبتسم لا أعرف ظهر متى ولا كيف دخل، ولكنه ظهر أمامنا فجأة، نظرنا جميعًا إليه في استغراب، وبدا الخجل على وجهه، وظلت إعاقته تعيق إجابته وقد كانت في أشد حالتها هذه المرة:

- البااااااب.. كككاااان.. مفتووووح..

كالعادة تزداد صرخات الأم حين تبدأ في إبداء الترحاب.. كانت ترحب به كأنه بيتها:

- ازيك يا محمود يا حبيبي، ازيّ أمك دلوقتي صحتها عاملة إيه، تعالى اما أعرَّفك على جارنا الجديد.. إلا صحيح يا اخويا انت اسمك إيه؟!

أجابت الفتاة بدلًا مني وقالت:

- ريتشارد.. اسمه ريتشارد يا أمي.

فزعت من الإجابة فلا أذكر أنني قد ذكرت الاسم قبلًا أمامها، وأسرعت في سؤالها عن كيفية معرفتها بالاسم، ولكن صرخات أمها قاطعتني:

- محمود وأهله من الناس المحترمة أوي في المنطقة، كل الناس بتشهد بأخلاقهم وطيبتهم، ولّا نفس أم محمود في الأكل، مايتوصفش، بس ربنا يومها بالسلامة، فيروس الكبد الملعون ربنا يخفف عنها يارب.

وقفت الفتاة ومدت يدها للسلام فبادلتها الأمر ونظرت لأمها قائلة:

- يلّا يا ماما.. عشان نسيبه يرتاح شوية.

ونظر كل من محمود والفتاة لبعضهما دون أن يتكلما ورحلت هي وأمها دون أن تصرخ مجددًا، وبقي محمود لدي، وأيضًا بقي عطرها يداعب أنفي. أخذت شهيقًا طويلًا وكتمته داخلي وظللت مركزًا لفترة حتى

أحتفظ به لأطول فترة قبل أن يجلس بمؤخرته على كرسيها ويمسك يدي بصورة مبالغ فيها كثيرًا ويرتعش لسانه كالعادة قائلًا:

- أااااناااا مممكن اعععملك أااي حااااجة تأمر بيهاااا.. ااانت متعرررفش ااانت بالنسبااالي إيه يا ريتشااااارد .

سحبت يدي بهدوء وظللت ناظرًا له ورأيت في قاع عينيه قطرات دموع تتلألأ؛ فسألته هذه المرة بنوعٍ من عدم الفهم؛ فمنذ أن خطوت هنا وكل شيء مختلف ومريب، وبدأ حقًا أن يكون مخيفًا:

- انت إيه حكايتك بالظبط؟!

حضنَ ذراعيه ونظر ناحية السقف وهلة وإلى الحائط لحظة أخرى وقال:

- هتعععععرف.. كككل حاااجة في ووووقتها.. كككنت عععارف إنك مش هتتتتتأخر.. كككنت عااارف ااان ربناااا هيستجيب لدعاااائي.

كانت كلماته متشبعة بالغموض؛ فصرت لا أتحمل أكثر من ذلك، شعور عدم الفهم لم أعتَد عليه من قبل، أنا ريتشارد العظيم المحلِّل السريع لكل إنسان أقابله،

أنا من يخرِج كل خبايا الإنسان في لحظة تلاقي عيوننا ببعضها البعض، كيف لي أن أكون بهذا الغباء أمام هؤلاء؟!

- انتوا إيه حكايتكوا في المنطقة دي كلها؟!، من ساعة ما جيت هنا وكل حاجة غريبة ومش منطقية ومش مفهمومة!

نهض من على كرسيه وأخذ يتحرك ببطء بين أثاث المنزل يمينًا ويسارًا ورحل، وحين ناديته مرتين تجاهلني متعمدًا، ولحظات وسمعت إغلاقه للباب.. رحل عن الشقة وظللت أنا شريدًا وحيدًا غائبًا هائمًا في عالم وحدي، أشفقت على حبيبتي حين كانت تهابني، وعذرت أصدقائي حين تجنبوني، وأخيرًا سمساري الذي طلب مني ذليلًا ألا أخبر أحدًا عما عرفته عنه، كنت مثله، أرى نفسي كتابًا مفتوحًا أمام

كانت كلماته متشبعة بالغموض؛ فصرت لا أتحمل أكثر من ذلك، شعور عدم الفهم لم أعتَد عليه من قبل، أنا ريتشارد العظيم المحلِّل السريع لكل إنسان أقابله،

أنا من يخرِج كل خبايا الإنسان في لحظة تلاقي عيوننا ببعضها البعض، كيف لي أن أكون بهذا الغباء أمام هؤلاء؟!

- انتوا إيه حكايتكوا في المنطقة دي كلها؟!، من ساعة ما جيت هنا وكل حاجة غريبة ومش منطقية ومش مفهومة!

نهض من على كرسيه وأخذ يتحرك ببطء بين أثاث المنزل يمينًا ويسارًا ورحل، وحين ناديته مرتين تجاهلني متعمدًا، ولحظات وسمعت إغلاقه للباب.. رحل عن الشقة وظللت أنا شريدًا وحيدًا غائبًا هائمًا في عالم وحدي، أشفقت على حبيبتي حين كانت تهابني، وعذرت أصدقائي حين تجنبوني، وأخيرًا سمساري الذي طلب مني ذليلًا ألا أخبر أحدًا عما عرفته عنه، كنت مثله، أرى نفسي كتابًا مفتوحًا أمام

كانت كلماته متشبعة بالغموض؛ فصرت لا أتحمل أكثر من ذلك، شعور عدم الفهم لم أعتَد عليه من قبل، أنا ريتشارد العظيم المحلِّل السريع لكل إنسان أقابله،

أنا من يخرِج كل خبايا الإنسان في لحظة تلاقي عيوننا ببعضها البعض، كيف لي أن أكون بهذا الغباء أمام هؤلاء؟!

- انتوا إيه حكايتكوا في المنطقة دي كلها؟!، من ساعة ما جيت هنا وكل حاجة غريبة ومش منطقية ومش مفهمومة!

نهض من على كرسيه وأخذ يتحرك ببطء بين أثاث المنزل يمينًا ويسارًا ورحل، وحين ناديته مرتين تجاهلني متعمدًا، ولحظات وسمعت إغلاقه للباب..
رحل عن الشقة وظللت أنا شريدًا وحيدًا غائبًا هائمًا في عالم وحدي، أشفقت على حبيبتي حين كانت تهابني، وعذرت أصدقائي حين تجنبوني، وأخيرًا سمساري الذي طلب مني ذليلًا ألا أخبر أحدًا عما عرفته عنه، كنت مثله، أرى نفسي كتابًا مفتوحًا أمام

الجميع يتصفحونه.. ولهذا شعرت أنهم يعلمون عني ما أجهله أنا، وذلك ما جعلني أرتجف مرتعشًا، ورأيت نفسي أشبه بإسحق يعقوب في مذكراته حين قتل الفتى في أحلامه فنهض ووجده متآكلًا بالمياه، تزاحمت مجددًا الهمسات في أذني وتضاربت الهمهمات.

بعد مرور ساعة تقريبًا وأنا ما زلت جالسًا مع نفس الكرسي، عدت لرشدي رويدًا رويدًا متذكرًا عملي الذي بالتأكيد صار على حافة الخطر؛ فكان من المفترض أن يصل لهم التحقيق الأول عن إحدى القضايا أو الجرائم الهامة مع لمحة وافية من التوقعات والجناة وغيرها من الأمور التي يتوق إليها رئيس التحرير ويثير البلبلة، حتى وإن كان من المحتمل أن نتهم الأبرياء؛ فلأول مرة أشعر أنني قد أكون غير دقيق في كلماتي، وخصوصًا بعد كافة الأحداث والكلمات التي سمعتها. وشعرت بذنبٍ كبيرٍ زاد من الصداع الذي رجع يضربني بقوة أكثر من السابق، ورأيت شريط ظنوني وشكوكي

وهي تمر أمامي، وكم من الشخصيات قد ظلمتها عنَّوه وجهلًا.

قررت الاتصال برئيس التحرير؛ فيجب مخاطبته الآن والاعتذار له وطلب إجازة لأنتبه لحالي وأتخلص من صداعي وأفهم كل شيء عن حياتي الآن، وبالفعل بدأت في البحث بين الأسماء والتي أغلبها كانت أسماء ذات صفات؛ فلم أعتَد تذكر الأسماء، ولكنني لا أنسى من هو صاحب صفة مميزة.

أخطأ إبهامي الإصابة؛ فبدلًا من أن يتصل بالمشتاق اتصل بـ (المندهش دائمًا) ولم ألتفت لهذا الخطأ إلا وهو يقول:

" ألو ؟! "

"مهند.. أقصد أبو الدهب"

"ريتشارد.. ازيك"

"نشكر الرب.. وانت عامل ايه؟"



"أحسن حال يا صديق"

"بقالي كتير ماشُفتكش.."

"ما انا عارف، أمي بتقول عليك انك فقر.. لازم تيجي تكسر النحس ده"

"هي لسه فاكرة الموضوع ده؟! ..ده عدى زمن عليه مش هتنسى أبدًا"

"لا ومقتنعة انك انت الملعون اللي لعنت المكان وقلبت العيد ميتم.. إلا صحيح فين أراضيك دلوقتي؟"

"القاهرة.."

"ياه.. إنت جمبينا اهو، لو نزلت القاهرة هكلمك تيجي لي ونتكلم لأنك واحشني جدًّا"

"ماشي.."

أبوالدهب هو الابن الوحيد لعمتي الوحيدة، من سكان أحد الأحياء بالإسكندرية. في العام العاشر بعد الألفين

دعوني لأشاركهم طقوس عيد الميلاد؛ فلا عيد للمرء وهو وحيد.. فلبّيت الدعوة بعد إصرار كبير وتحيل، وذهبت إلى هناك. كانت زيارتي الأولى للإسكندرية.

بقينا في سهرة طويلة داخل الكنسية والجميع في سعادة غامرة، نلقي الترانيم والأناشيد الدينية التي يعشقها الرب.. ولكنني فجأة شعرت وكأن الشيطان بيننا يسخر منّا. شعرت وكأن المكان قد لُعِن فجأة وكأننا لسنا في بيت الرب.. رأيت الشيطان يطوف بالمكان وأجنحته تغطي جميع الحاضرين.. رأيت فيهم قرون الشيطان كأنها تبرز في قامتهم. رأيت انعدام الروحانية بالمكان، وتمنيت لو رحلت عن المكان حالًا. شعرت أن الرب غاضبٌ منّا . لوحت برأسي مرتين كأنني أنفض منها تلك الأفكار الغريبة، وبدأت في إغماض عيني والاستمرار في تلاوة الكلمات، ولكنني كنت أشعر باحتاك الدماء السارية في يدي بجدران الأوردة والشرايين. كانت تغلي.. تتبخر.. وسمعت في باطن أذني الصرخات حولي والأرض تهتز تحت قدمي رغم ثبوتي عليها، وعندما فتحت عينيّ كان الانفجار



قد حدثَ والأشلاء حولي وجسدي ووجهي ملطخان بالدماء، والناجون منخفضون وراء الألواح الخشبية.

عدَّلت من الاسم هذه المرة، وقمت بالاتصال بالـ"عاشق للنجاح" رئيس التحرير، وما إن شرعت في قول شيء حتى قطعني في بهجة لا أراها سوى في لحظات استشعاره النجاح:

- هتجيب لي الجزء التاني إمتى؟

شعرت أنه يعتقد أنه مع آخر، أو أنه لم ينظر للاسم قبل فتْح الخط فأجبت على سؤاله ناطقًا اسمي:

- أنا ريتشارد..

بقي محتفظًا بنفس اللهجة الفرحة وقال ساخرًا:

- بسألك هتخلَّص الجزء التاني من التحقيق ده إمتى؟

غير معقول ما يحدث، أنا غير فاهم ماذا يحدث، عن أي جزءٍ ثانٍ يتحدث، وجزءٌ ثانٍ لأي شيء، ومتى

أرسلت له جزء أول في الأصل.. ما هذا؟!.. صمتّ ولم أتكلم وتركته منتظرًا إجابة لا أمتلكها.

- يا ريتشارد أنا شخصيًا نِفسي أعرف ازاي الأب قتله في أحلامه والشخص غِرِق! قصته دي هتكسر الدنيا..

صاعقة تتلو الأخرى، نظرت لأرجاء الشقة من حولي، شعرت بسخريتها مني، شعرت بنفس إحساسي قبل انفجار الكنسية من حولي، شعرت أنني لست أنا. اتهمت نفسي بالانفصام، مَن أرسل للجريدة المذكرات التي وجدتها.. كيف ومتى وأين؟!

- ريتشارد.. قُدامك أربعة أيام يكون عندي باقي التحقيق، ومن حقك الصحفي حذف المكان، وكويس ان أغلب الأشخاص متسمية بألقاب زي "التائب" و"حاملة الشعلة" وخلافه.. الجريدة مش متحملة قضايا تانية بس حاول تلمّح من بعيد عن المكان الحقيقي علشان المصداقية بس.

أغلقت الهاتف وجريت ناحية سريري حيث مبيت الأوراق منذ الأمس، وشرعت في استكمال جزءٍ جديدٍ من المذكرات.. أو الفصل الأخير في مذكرات إسحق يعقوب -كما ذكرَ- وكان خاصًا باعتراف "عين الخطيئة".

- 5 -

مذكرات إسحق يعقوب

نسبيًا عدُت لحالتي السابقة بنوعٍ من الاصطناع، أرهقني بقوة وارتسمت ابتسامة المغفرة والرحمة على وجهي، وللفتى القادم. لا أعلم لماذا رأيت في عينيه جحيم الرب الأبدي؟ ولكن وجهه ظل محتفظًا بشيءٍ ما من نور ساكني الملكوت العظيم، وقبل أن ينطق قُلت له:

- إنت صاحب عين خطيئة..

تلاشت ابتسامة الفتى التي لم تبرز أمامي سوى لحظات قبل أن أرى رعشة جسده وقطرات عرقه. لم يحمل سوى رائحة طفيفة من بخار نيران قادمة من عالم آخر. رأيت فيه الإنسان؛ في ضعفه وذله، رأيت سخرية الشيطان وانتصاراته، رأيت ضعفه وضعفي، رأيت أنفسنا ونحن نخذل يسوع، نفخر أنه ضحى بنفسه ذات يوم ليكفّر عن ذنوبنا، ولكنني أرى أحيانًا

أن فعلته هذه تُثقِل من عقاب خطايانا الكثير لعدم تقديرنا لأفعاله.. ليته كما يقول عنه المسلمون مجرد رسول أتى ورحل عن عالمنا في سلام، ولكن يؤسفني أن الحقيقة ليست كذلك..

- الشيطان تلاعب بي يا أبونا.. خدعني!

ابتسمت له رغمًا عني، ولكن بداخلي أشعر بصدق كلماته عكس الفتى السابق، رعشة لسانه، أنين صرخاته الخفية بداخله، الدموع التي تأبى الذوبان، كان يجب أن أهدِّئ من روعه، كان يفرك كلتا يديه في نهمٍ، كانت عيناه تتلألأن بالدموع .

- نجح الشيطان في مهمته وتمكن من الإيقاع بك، ولكن أبشرك بأن الوقت لم يفت بعد، من الجيد أنك جئت للاعتراف، لا تقلق، إن كان لا يغفر الخطايا لكان الملكوت خاويًا.

تفهم الفتى الكلمات بسهولة وأومأ برأسه يوافقني بأسى، ثم سألني:

- لماذا خلق اللّٰه الشيطان؟!.. لماذا دخولنا الجنة مقترن باختبارات عدة؟!.. كان يستطيع إلحاقنا بالجنة دون أن نمر بالمرحلة الدنياوية الفانية.. أحيانًا أعتقد أن اللّٰه يعقابنا –نحن- على رفْضِ إبليس السجود لآدم.. أو أحيّانا يعاقبنا –نحن- على أكل آدم من ثمار الشجرة.. وكأن قدرَنا تكفير ذنوب الآخرين.

كانت كلماته لتغضب الكثيرين، ولكن للحظات شعرت بالذنب نحو هؤلاء.. نحن لا نفيد الرب في شيء ولا نضرّه.. الفتى كان يريد الجنة منذ أول وهلة، ولكنني أنا كنت أريد الفناء منذ أول رمقة في هذا العالم.. لن أنقّي نفسي وأمجّدها وأقول إن الفتى مخطئٌ.. فقد راودتني تلك الأفكار لسنوات عدة في عمر الشباب، كانت أفكار غير حكيمة، غير متزنة، تجمع بين رغبات الشباب، وتسرُّعهم دون خبرة، ليس هناك نعيمٌ دون تعب؛ هكذا علمتنا الدنيا، ولماذا؟!.. إنها فقط هكذا.. ليس في مقدورنا فهم كل شيءِ.. فقد خُلقِنا واجدين الأمر هكذا.

لم أطل حديثي معه، ولكنني قُلت له:

- قُل ما لديك من ذنوب، ليغفرها اللّه لك.

كانت دراسة الفتى غير المكتملة واضحة عليه بقوة، ولكنني فهمت قصته وسأسردها أنا بدلًا عنه.

بدأ الفتى حديثه بلمحة طفيفة عن حياته التي كانت هادئة نوعًا ما رغم بؤسها، تتلخص في العمل الدائم بأرض أبيه وسهرة يوميًّا على مقهى كامنة في أطراف القرية، وطريق إياب هادئ كالعادة، مرورًا بما يُعرَف بالساقية المهجورة.. تبًّا لتلك البقعة بأرضنا، أشعر وكأنها تطاردني.

قبل التعمق أكثر في حياة الفتى، أريد أن أذكر أنه في قريتنا العديد من حالات الغرق التي حدثت على مدار عقود؛ فلم يكن التائب هو الأول، وأيضًا لن يكون الأخير .. وبذلك صارت هذه المنطقة منبوذة من المثقف قبل الجاهل لأسباب عديدة.

اختلفت أسبابهم، ولكن ظل كره الأرض مزروعًا بكل قلب في هذه القرية من قديم الزمان.

كانت الحياة قصيرة جدًّا على أن ينام المرء كثيرًا فيها.. لم يعرف الفتى النوم في حياته سوى أربع ساعات فقط يوميًّا؛ فكان لا يعود إلا قرابة الساعة الثالثة فجرًا، وكان ذلك سببًا في صياح أبيه كل ليلة، وبكاء أمه وتهديدها له بأنه إن لم يكف عن ذلك التأخير سيقع لا محالة ذات يوم فريسة سهلة متيسرة في أيدي ما يسمى بشبح النداهة.

كان الفتى يسخر من حديثهما رغم عدم تكذيبه للأسطورة بالكامل، كان جانب من باطن عقله يصدق، ولكن يبقى ذلك المقهى هو المنفذ الوحيد لالتقاء أنفاس راحته، وتبقى سلامته طوال المدة السابقة شفيعًا له.

كان الأمر غير منقطع، وصار كمتلازمة مرض لا يفارقه، وأخيرًا قرر التعايش معه.

و لكن دوام الحال من المحال كان يجب أن يحدث أمرٌ وتنقلب الحياة رأسًا على عقب؛ ففي ستة أيام خلق الخالق الكون والحياة، ولكنه لم يخبرنا متى بثَّ فيها

خداع الحية وأمرها بأن تلدغنا خلسة في ظهورنا، ورغم خيانتها المستمرة وإصرارها على تحدينا، مازلنا نتمسك بها حتى الرمق الأخير فينا وكأننا لا نتعلم أبدًا.

بدأ الأمر حين عاد في ذات الليلة الممطرة القاسية، وكان يتعثر بتحركاته وتغوص منه قدماه في الوحل الذي سقط هو فيه إراديًا منساقًا بالشرير ذاته.

تشققت السماء بأشعة البرق فوقه، واقتربت السحب وأختبأ القمر خلفها، انغمست قدماه في الوحل والأمطار تضربه. كان حينها يعبر الأرض المهجورة كعادته، ولم ينكر أنه لم يكن مرتاحًا في تلك الليلة وشعر أن معه مؤنسًا، ولكنه-جاهدًا- حاول التخلص من أحاسيسه المختلفة.

كانت أمامه، تتعرى بما تبقى عليها من ملابس بالية.. جسد نحيل ولكنه مثير.. تتقدم خطوات ناحية المياه الراكدة للترعة وهي تلقي بأشيائها خلفها.. وقفت على الحافة ونظرت إلى السماء تخاطبها فاتحة ذراعيها.. كان الظلام شديدًا، لم يلتقط ملامحها في الظلام، ما



ظهر كان جسدًا بلا عنوان. اقترب خطوتين خلسة ومكرًا منه، ولم يتفاجأ من تلك المجنونة حين ألقت بنفسها في المياه طافية على سطحها.. كانت كالطفلة في حضن أمها الدافئ.. كانت.. جميلة!

كان عقله قد تخدر وصار ضامرًا يأكلها بعينه العاصية التي لم ألقبّها بذلك الاسم لهذا الذنب..

فلم أحمله ذنبًا كبيرًا لهذا الأمر، بل عن ما سيحكيه تباعًا؛ فهذا لم يكن ذنب عينيه الوحيد..

ظل الأمر لدقائق قبل أن ينتفض جواله في جيبه ليشقعر جسده ويعزم على إخراس ذلك الشيء اللعين قبل أن تلاحظ الفتاة الأمر. وبعد تعثرات في إخراجه من جيبه عدة مرات تمكن من الأمر واستطاع فصل البطارية عن الهاتف، وعاد ببطء لينظر للعارية، ولكن المياه كانت ساكنة هادئة بعد زوال الأمطار التي لا يعلم متى توقفت.

جرى ناحية شاطئ الترعه معتقدًا أن الفتاه قد لقت مصرعها بداخل المياه أو - ليحمنا الرب – أن الفتاة لم تكن من جنس البشر.

لاحظتُ في تلك اللحظات ارتباك الفتى وهو يعترف لذكرى أو مشهد أليم تذكَّره، رأيت الخوف في قلبه قبل عينيه وكلماته. كانت بشرته تعكس الإضاءة، وكان عرقه ينهمر، ظننت في البداية أنه تذكر جسدها العاري فتملكته الشهوة التي لم أعانقها قَط من قبل، ولكن ما به كان يشبه حالتي كثيرًا في الأيام الماضية.. لقد كان خائفًا ..

بحث عن الفتاة بعينيه ولم يجدها، تراجع للخلف قليلًا عدة خطوات في حيرة ورهبة؛ فتعثر بقطعة من ملابسها الساقطة أرضًا وهبَّ يمسكها وظل ينظر لها لمدة لا يعلم قدرها قبل أن تستشعر أذنه أنفاسًا ساخنة في عتمة وبرودة الظلام. كانت كلماته غير منمقة وأيضًا غير مرتبة، كان يتكلم بسرعة كأنه يزيل عن عاتقه حملًا ثقيلًا. أرهقني كثيرًا في محاولة فهم ما يقوله.

التفت بهدوء للخلف وهو يعلم أن الفتاة خلفه مباشرة، وهنا كان قد تيقن بطريقة أو بأخرى أن تلك الفتاة هي شبح النداهة -كما يقولون-، وأن نهايته صارت وشيكة لا محال، ولكن الفضول أجبره أن يراها، وبمجرد أن لمح تفاصيل وجهها في عجالة وانتقل سخطها الطاغي على وجهها برعب وفزع في قلبه فرَّ جاريًا يصرخ بأرجاء الشوارع بأنه رأى النداهة، وبأن شبح النداهة حقيقي.. شبح النداهة حقيقي..

دخلت أمه تحمل صينية الطعام له، حاول إخفاء دموعه، ولكنها رأتها رغم كل شيء، اقتربت منه وبدأت في إطعامه كالرضيع ودموعه تسيل في أسى.

- لقد رأيتها يا أمي.. لقد رأيتها..

لم تردّ أمه ولو بكلمة واحدة وظلت مستمرة في إطعامه ككبش ضال لا مأوى له.

في قريتي ظهرت حالات الغرق والاختفاء واقترنت بالنداهة رغم تحدث أحد الشباب عن رؤية شيء

غريب يتحرك ليلًا فوق حافة الطريق. ولكن الجميع سخر منه سبعة أيام بست ليالٍ إلا إنه في ليلته السابعة اختفى ذلك الشاب نهائيًا، وكان يحتمل الأمر مليون احتمال، ولكن لأننا نعشق الخرافات ظلت أمه تصرخ في الطرقات أنه حاول تنبيهها أن هناك ما يدعوه ويغويه -رغم عدم تحدث الفتى عن ذلك نهائيًّا- وهي لم تصدقه إلى أن خطفته أو انساق خلفها.. وأنه الآن في أحضان الجنية أو النداهة أو أي شيء.. ومن هنا كانت بداية أسطورة (النداهة في عالمنا الصغير).. قريتنا.

ظلت أم صاحب "عين الخطيئة" الفتى الأميّ تطعمه كأنها تغذية قبلما يخطفه شبح النداهة ليلًا ويداها ترتعشان وهو يبكي محاولًا التحدث معها، ولكنها تتجاهله، إلى أن أنهت الطعام عنوة وغادرت الغرفة تاركة إياه وحده.

كانت ليلة لم يعرف فيها النوم، كان المكان يعج بصوت عقارب الساعة الرديئة، كان يخشى النوم، يعلم أن الكوابيس ستكون كيهوذا في ذلك اليوم، كان متأكدًا



غريب يتحرك ليلًا فوق حافة الطريق. ولكن الجميع سخر منه سبعة أيام بست ليالٍ إلا إنه في ليلته السابعة اختفى ذلك الشاب نهائيًا، وكان يحتمل الأمر مليون احتمال، ولكن لأننا نعشق الخرافات ظلت أمه تصرخ في الطرقات أنه حاول تنبيهها أن هناك ما يدعوه ويغويه -رغم عدم تحدث الفتى عن ذلك نهائيًّا- وهي لم تصدقه إلى أن خطفته أو انساق خلفها.. وأنه الآن في أحضان الجنية أو النداهة أو أي شيء.. ومن هنا كانت بداية أسطورة (النداهة في عالمنا الصغير).. قريتنا.

ظلت أم صاحب "عين الخطيئة" الفتى الأميّ تطعمه كأنها تغذية قبلما يخطفه شبح النداهة ليلًا ويداها ترتعشان وهو يبكي محاولًا التحدث معها، ولكنها تتجاهله، إلى أن أنهت الطعام عنوة وغادرت الغرفة تاركة إياه وحده.

كانت ليلة لم يعرف فيها النوم، كان المكان يعج بصوت عقارب الساعة الرديئة، كان يخشى النوم، يعلم أن الكوابيس ستكون كيهوذا في ذلك اليوم، كان متأكدًا

أن المشهد سيتكرر عشرات المرات في أحلامه غير المتاكد من نهوضه منها مرة أخرى.

رأى نفسه بنفس المكان، ولكن الحلم اقتصر على التركيز عما غفا عقله عنه في ذلك المكان.. رأى هاتفه وهو يتسرب من بين يديه أرضًا.. ونهض صرعًا صارخًا على سريره يبحث عن الهاتف يأمل ألا يكون ما شاهده حقيقة، ولكن كما هو متوقَّع فقد الأمي الهاتف بالمكان..

طِبقًا لحديثه ونظرته كان يقول إنه من المستحيل تجاهل هاتف سعره يتخطى الخمسة آلاف جنيهٍ كسماد بيئي لأرضٍ مهجورة، ويستحيل ان يظل نبأ لقاء النداهة وعار ذعره وصرخاته يلاحقانه إلى الأبد، ولكن مجرد التفكير في العودة يجعل تلك الرعشة تسيطر عليه والمشهد يتكرر أمامه من حينٍ لآخر.

كان يعلم أن عودته للأرض المهجورة شيءٌ لابد منه، عقله ينظر لقلبه المذعور ويحاول بث فكرة بائسة عن عشرات المرات التي تحرك فيها بتلك الأرض ولم يرَ

شيئًا غريبًا أو غير معتاد، ينتفض قلبه رافضًا لذلك الحديث وتظل المحاورات قائمة حتى استقر أنه يجب أن يعود للأرض مرة أخرى، ولكن لا داعي أن يكون الأمر ليلًا، وأيضًا لا داعي أن يكون وحيدًا يقول الأميّ مستكملًا حديثه.

"كنت على الأريكة حاملًا في يدي الهاتف الأضي، أسترجع أمامي جميع أسماء من عرفتهم يومًا وبإمكانهم المشاركة في تلك الرحلة، أتحرك بينهم في مخيلتي، من يستطيع الذهاب معي دون سخرية أو خوف.. شرعت في الاتصال بكل من عرفته يومًا، وكان عجيبًا أن أغلب من اتصلت به لم يردوا، ومن يجيب يخبرني أن صديقي ليس بالقرية ولن يرجع في القريب العاجل.. الجميع كان يتجاهلني.. يخشونني وأذكر أن أحدهم زعق فيّ كثيرًا وقال إنني أحاول سحب أحدهم حتى أنقل له اللعنة وأخلص نفسي من عشق النداهة الملعون ثم استعطفني كثيرًا ألا أقحم أحدًا في هذا الأمر، وأن أتقبل مصيري وقدري بشيء من الرجولة أكثر من ذلك.



توقع الكل تقريبًا أنني سأختفي خلال أيام من قبل النداهة التي عشقتني ليلًا وتنوي أخذي. كنت أريد الصراخ في الجميع.. فإذا كانت عشقتني لماذا ستنتظر سبع ليالٍ لخطفي إلا إذا كانت تريد أخذ مشورة أهلها؟!

- لطفي..

في المرة الأولى لم أستمع لأمي وهي تقولها وظللت غارقًا في أفكاري مجددًا وعقلي يسأل من يستطيع الذهاب معي للأرض المهجورةKمرورًا بالعقبة الجديدة وهي التجاهل.

- لطفي..

لفت انتباهي الاسم هذه المرة ونظرت ناحية أمي وسألتها في حيرة:

- أقلتِ لطفي؟!

بعدم اهتمام أجابت:



- نعم.. لطفي صديقك.. يريدك على الباب.

***

قطع "الأميّ" حديثه وعيناه تنظران بحيرة مرتعشة وسألني:

- أبونا، هل تؤمن بإشارات الرب؟!

قُلت له إني لا أفهم ولكنه أعاد السؤال بصياغة أخرى:

- كلمات الرب..

بنوع أحمق من التفلسف أجبت:

- بالتأكيد.. كلام الرب في كتابه المقدس.. ومن لا يؤمن بذلك بني؟!

استنكر الفتى الرد، وقال بنوعٍ آخر من الهيام:

- في لحظة تشعر أن الله يخاطبك أنت.. تجد في كل ما حولك رسالة غير مفهومة.. رسالة لا تحتاج لعَالِم أن يفهمها.. بل تحتاج لقلبٍ يترجمها.. هناك لحظات تشعر



أن العالم كله يكون كحلقات تتشابك مع بعضها لتوصّل إليك فكرة واحدة يكون منبعها الرب ذاته.

كان يستحيل أن ينطق "الأميّ" بتلك الكلمات مع قلة علمه، ولكنه كان يقول كلمات أشبه بتفسير ما حدث لي أول مرة في موت الفتى التائب وكأن كلمات الأمي جزءٌ من رسالة الرب لي المتجسدة في صوته.

- ومَن يكون لطفي؟!

توقف للحظات يضاجع عقله مستخرجًا منه أفضل الكلمات لكنه لم يطل حين يئس واسترسل:

- لطفي، من يؤمن ألا إله للكون.. لا شيطان.. لا علم غير مادي.. الحياة هي الحياة.. هي الجنة وهي الجحيم.. نحن الإله.. ونحن الشياطين.

علمتني وظيفتي ألا أتفاجأ من ذنب من أمامي وأن أطمئن مرتكبه أن رحمة الرب تشمل الجميع، كما أيضًا علمتني الأيام الماضية بتلك القرية أنه ليس هناك ما يفزع أكثر مما رأيت.

- أتقصد أنه ملحد؟!

- أكثر من ذلك أبونا.. أكثر بكثير للأسف.

- وهل هناك أكثر من الإلحاد.. كيف؟!

- إنه يمقت الأديان.. يكرهها.. يرى أنها سبب الحروب والنزاعات والدماء السائلة.

يرى أننا نعبد إلهًا غير عادل.. غير حكيم.. وأيضًا.. يرى..

لم أتحمل حديثه أكثر من ذلك عن كلمات وصِفات غير حكيمة ومتزنة للرب العادل.. مَن يلحد ويكرّس حياته بأكملها في سبّ الأديان كأنه يريد التباهي بإنكاره.. يريد إبلاغ العالم أن لا أحد هناك فيمكننا سبّه وإهانته ولا يمكنه فعل شيء.. لا أفهم لماذا الرب يتأخر في الرد على هؤلاء؛ فبإمكانه تجديد ثقة البشر في وجوده ويلقي بكرة من جهنم تقسمه لنصفين. على كل حال قاطعت الفتى حتى لا يكمل كلماته الدقيقة والتفصيلية:



- يكفي بني.. أكمل، ما علاقة ذلك بالأمر، وما علاقة كل هذا بخطيئتك التي تود الاعتراف بها!

***

علاقته كانت التناقض.. إزدواجية في الفكر بغرور جعله لا يرى إلا نفسه، رغم قلة علمي وعدم زياراتي للمدارس إلا إنني أعلم أكثر منكم.

التعليم لدينا.. أو في أي بقعة على الأرض ما هو إلا برمجة لعقليات الطلاب للسمع والطاعة ومحو أفكار التمرد.

المسلمون يرون أنفسهم الحق، ونحن نرى أنفسنا الحق، ولكن ما المانع في أن نكون جميعًا على حق !..

لماذا تظن طائفة منّا أن اللّٰه حكرٌ على أحد.. لماذا يعتقد البعض أنهم كالإله يقررون مَن سيسكن الجحيم ومَن لا.. ذلك التفكير الأحمق وفكرة الطائفة الوحيدة الناجية هما من صنعا الإلحاد وجعلت الجميع ينكر؛ فإن كان لا ضمان لجنة الخلد إذًا يكفي جنة الفناء .

الملحدون أنكروا؛ لأن صورة الله التي صوَّرها رجال الدين غير مرضية لهم.. اعذرني أيها الأب على الإطالة، ولكن نحن نلتمس الأعذار لأنفسنا عند الخطأ دون علم، ولكن الله لن يلتمس لنا اتباع دينٍ آخر خطأ دون عِلم!.. كيف؟

الله من زرع فينا السماح هل ممكن أن نكون أكثر سماحًا منه؟!

الإجابة بـ "لا" تجبرنا على محو كل شيء تعملناه.

والإجابة بـ "نعم".. تجبرنا على الإلحاد.

طلبت منه الذهاب معي؛ فهو الوحيد الساخر من أمر النداهة، ورغم ذلك رأيت اهتزازة طفيفة في عينيه تخشى الأمر.. فهمت حينها أنه لا يوجد ملحدٌ تام الإلحاد ..

وكثيرًا أشعر أيضًا أنه لا يوجد من هو تام الإيمان.. سوى الرسل؛ لأنهم مَن تواصلوا مع الرب بصورة مباشرة!

فهمَ من نظرتي أنني قد أوشكت على كشف أمره، ولكنه صمم أن يتحداني فيجب أن يظهر أنه لا يخاف!.. إنه لا يهاب أمرًا لا وجود له حسَب ظنه.

لوهلة نسيت مصلحتي، وشعرت بغرور في تحدي ابن العلام كما يُلقَّب في قريتنا.. المهندس الوحيد.. صاحب الصيت والذكاء والعلم.

- ليلًا..

- ولماذا نذهب ليلًا ؟!.. بإمكاننا الذهاب نهارا

- أتخاف؟!

- لا.. بالتأكيد لا.. ولكن البحث ليلًا أمرٌ صعبٌ ومرهق.

- ألستَ معتقدًا أن لا وجود للنداهة.

- بالتاكيد لا وجود لها.

- إذًا.. اثبِت ذلك.

- ولا طريقة للإثبات سوى الذهاب ليلًا؟!

- بالنسبة لي.. نعم..

- فليكن ما تشاء.. ليلًا.

الغرور مرض ككلب تُسعره أنت ليأكلك ذات يوم.. كنت أحمق حين قررت أن أتحداه.. كيف صوَّر لي غبائي أن بإمكانه رفض الذهاب.. كنت على أتم الاستعداد بالتضحية بما لي في سبيل كشفه أمام نفسه.. كنت أريد أن يرى الخوف في مرآتي.. ولكنني فشلت وكسب ابن العلّام التحدي.

في الليل سلكنا الطريق سويًّا

قلبي يرتجف خوفًا وهو يصطنع الضحك خائفًا.. يصر على عدم إظهاره أمامي ولكني أشعر به.. أشعر بهالة سوداء تحيط به.. أشعر أن الشيطان هو ثالثنا في تلك الليلة.

أشعل سيجارة وهو يتكلم..

- كان بإمكاننا الذهاب نهارًا بدلًا من أن ترتجف هكذا ليلًا.

كنت على يقين من أنه يدعي الشجاعة، ولكن الأمر كان أشبه بانقلاب السحر على الساحر.

- أنا لست خائفًا.

- مشكلة المؤمنين أنهم لا يثقون فيمن يؤمنون به.. ألستَ تذهب كل أحد للكنيسة تخاطب تمثال المسيح وتتحدث مع صورة العذراء.. الله يراك الآن لماذا لم يحمِك المره الأولى حين رأيت ما رأيته؟!

- أحيانًا يكون للرب حكمة ما.

- وتلك هي الشماعة.. الرب بكلمة ينهي مجاعات، يقضي على جبابرة الأرض، ولكنه لا يفعل.. لماذا الله أبقى على الشيطان؟ كان بمقدوره الخلاص منه في لحظة.. قبل البشر ماذا كان يفعل الرب؟ ملايين السنوات أين كان؟! أنتم حمقى وتتبعون الوهم.

كلماته ترن في أذني، لم تكن جديدة؛ فهي أمور وردت كثيرًا في عقلي وأحيانًا لا أمنع نفسي من التفكير فيها، ولكنني لي دائمًا فلسفة الإيمان من القلب وليس العقل، ورغم ذلك. . .

- حتى وإن كان كلامك صحيحًا.. فأنا أرفض أن يكون الموت هو النهاية.. أرفض أن تكون الحياة كغابة يأكل فيها القوي الضعيف.. وإن كانوا الرسل أو يسوع ادّعوا ما ليس لهم؛ فيكفيني نيتهم بالحفاظ على البشرية من الظلم والظالمين.. يكفيني أمل وجود النعيم لحظة فراق روحي.. ولكن ما يحيّرني دائمًا.. لماذا تصر دائمًا على ذِكر أنك ملحدٌ أمامي.. لماذا تصر على أن أكون مثلك..؟!

صمتّ أنتظر الإجابة منه، ولكن لم يرد وظل صامتًا.

لأنك خائف.. وغير متأكد من ظنونك.. تريد مرافق لك في الجحيم إن وُجِد-

انتهى الحديث بيننا واستطال الطريق أمامنا، نسيت الهاتف نهائيًّا وصار الأمر رتيبًا لا جدوى منه، شعرت بقليل من الانتصار عليه حين صمت، وشعرت بقليل من الفخر حين دافعت عن الرب يسوع ..

وصلنا الأرض المهجورة، بحثت في نفس المكان يمينًا.. يسارًا.. لا شيء..

ظل هو يتحرك في كل مكان يبحث وهو يتصل به، يتمنى أن يزفر عن نغمة نسير على أثرها، ولكن حركة عيدان القمح خلفنا بسرعة غريبة كادت أن توقف قلبي في لحظتها.

هرول ناحيتي لطفي وهمس:

- أرأيت ما حدث؟!

كتمت خوفي بصدري وابتسمت مجيبًا:

- لم يكن هناك شيء أيها الجباااان..

وضع يده على فمي وجذبني بقوة ناحية عيدان القمح.. بقوة مفرطة وهو ينظر إلى إحدى الجهات التي خشيت أنا أن أرمقها حتى..

بين عيدان القمح اختبأنا وأصوات الصرخات المكتومة تخرج من بعيد، كانت فتاة ملابسها شِبه ممزقة، مقيدة.. يسوقونها من قدميها ووجها على الأرض..

أقسم إنها رأتنا..

نظرت لي كأنها تستنجد بي

ولكنني خشيت التدخل..

أما لطفي فأخرج هاتفه وبدأ يصورهم..

عقلي كاد يطير ..ماذا يفعل ذلك المعتوه، وحين سألته، استهزأ بصوتٍ منخفض:

- هذا دليل على فعلتهم.. هذا ما سيبقيهم ما تبقى لهم بالسجن.

همست فيه:

- بإمكاننا التدخل وإخراجها من هذا الأمر.

- كفى ادعاء بطولة.. ليس بعيدًا أن نلقى مصرعنا في تلك اللحظة.

خرج أحدهم متعرقًا مذعورًا واستقل مركبته ورحل باكيًا، وظل الآخران يتناوبان عليها ينتهكان جسدها وهي باكية صارخة.

رأيت ابتسامة تطغى على وجه لطفي.

- ماذا بك؟!

- لا شيء.. سأخبرك فيما بعد.

رأيت أحدهم يخرج سكينًا ويقربها من وجه الفتاة ويسقط متأرجحًا ضحكًا، ثم أزال غطاء فمها وقال:

- توسلي لي لكي أرحمكِ!



انهارت الفتاة من البكاء ودماؤها تنساب من كل جهة بها؛ فصرخ بها الآخر أكثر:

- الآاااان..

خرج صوت الفتاة صارخًا:

- أنقذني يا الله.

نظر هو للسماء بكل فجور:

- أنت خذلتها..

ووضع السكين على رقبتها وظل يجتزها حتى انفصلت تمامًا بينما الآخر لم يشهد ذلك لأنه سقط في النوم ما إن انتهى دوره منها.

كابوس رأيته بأُم عيني ولم أستطع التدخل..

رحلت من المكان ورحل لطفي ولم يتكلم أحد طوال الطريق فيما رأينا..

صمت..

صمت..

صمت ..

***

- وأبلغتهم عن الأمر؟!

- لا..

- لماذا؟!

- لهذا جئت لك أبونا..

***

اتصلت بلطفي مراتٍ عدة حتى نذهب للقسم أو أهل الفتاة أو أي شيء حتى نبدأ في إعداد جحيم هؤلاء ولكن ظل لطفي يتجاهل الرد دائمًا.

ساعة تمر تلو ساعة ولا رد..

كان لابد من الذهاب إليه لمعرفة ما يحدث عنده، ولماذا يصر على عدم الرد؟!

ولكنني حاولت الاتصال لمرة أخيرة، فردَّ:

- الدنيا كالغابة.. الدنيا غير عادلة.. واحمد ربك أنني لم أقل إن يسوعك غير عادل.

- قُل! لا يهم هذا.. هيَّا لنذهب لنصنع العدل نحن..

- هذان انتهكاها لأنهما استطاعا ذلك.

- إذًا؟!

- بهذا الفيديو.. أنا أستطيع إذلالهما.

- تقصد ابتزازهما؟

- سمِّها كما تشاء..

- والفتاة؟! وقتلها؟! والعدل.. وكل مبادئك!

- على العكس، رعبهما لن يقل كثيرًا عن رعبها لحظة الموت بل سيكون أكثر، أليس الرب يعشق الندم على الخطايا.. سأجعلهما يندمان كل دقيقة.. كل لحظة..

- و.. لكن.. هذا خطأ.. وأيضًا خطر.. من قتل مرة يمكنه قتل مرة أخرى إن لزم الأمر.

- الإنسان يقتل حينما يجد أنها الطريقة الوحيدة للدفاع عن نفسه، ولكنه لن يقتل حين يعلم أن ذلك يعجل من أمره.

- وضِّح..

- سأقول له إن فيديو التصوير مع أحد معارفي سيوصله للشرطة حين يحدث لي مكروه.

أغلقت الهاتف في وجهه ولم أقابله أو أتحدث معه من يومها، وهو لم يحاول أبدًا. أظنه يخشى مواجهتي أو اقتسامي الأموال معه أو أي شيء. ظللت أيامًا عديدة أتكلم مع روحي عما أفعل، ولكني عجزت عن إيجاد الحل فجئت إليك أيها الأب.. جِد لي الحل.. ماذا أفعل..؟!

***

كان الفتى الأمي أمامي في تلك الثانية يتمم بكلماته، كانت دمائي تفور بأوردتي، شعرت برغبة لم أستطع كبح جماحها ناحية أن أرى ذلك الأفّاق "ابن العلام" -كما يقولون-.

كنت أريده ميتًا.. محروقًا.. مصلوبًا.. متفحمًا..

كنت أريده أن يرى ظلمه للفتاة في نفسه..

في لحظة، انتصر عليّ شيطاني مجددًا، وتمنيت أن يحدث كما حدث للفتى التائب حتى وإن كان على سبيل الصدفة.

- ماذا أفعل يا أبانا؟!

حين سألني كنت حقًا لا أعلم ماذا يجب أن أفعل الآن؟! كنت خائفًا قليلًا أن أجعله يبلغ الشرطة فيهرب كالسابق، لكن الأسئلة كانت تسترسل من بين شفتيّ وحدها.

- أتعلم أين تخلصوا من جثة الفتاة بعدما قتلوها؟



هدأ قليلًا كأنه يستذكر الأمر، ثم أجاب:

- لا..

طالما جثة الفتاة غير موجودة؛ فلا دليل على الجناة، ولا يكون هناك جريمة في الأساس.

- يجب أن توصل الفيديو للشرطة مهما كلفك الأمر.

- أتقصد أن أحاول إقناع لطفي بذلك الأمر؟

- لطفي لن يقتنع أبدًا..

صمت قليلًا أفكر بعدها أردفت:

- يجب أن تحصل على ذلك الفيديو حالًا.

- كيف؟!

- أي وسيلة حتى إن وإن كنت ستسرقه منه.

رحل الفتى وتركني وحدي فريسة أفكاري المتجسدة داخل سيلٍ من الأحلام غير المنقطعة؛ ففي منامي

انكشفت. حالة تمنى عقلي ألا أعيشها مجددًا ولكنها أصرّت أن تعيشني مرة ثانية، كانت الأرض هي الأرض الخالية من الحياة، ومازالت البحيرة ساكنة في أعماق قلبها يكمن غضبها، لم تكن تنتظر غريقًا آخر كالسابق، ولكن هذه المرة لعبت النار الدور بالكامل .

رأيته يجري ناحيته خائفًا مذعورًا ناظرًا إلى الخلف، كان يرتجف، متعرقًا، عفن الرائحة، أشيب الرأس. سقط أرضًا مرتين، ولكنه كان يواظب على النهوض والتحرك ناحيتي. كالعادة كان غضبي أكبر من رحمتي شعرت بنارٍ تشتعل في جسدي، كان يصرخ فيّ :"أنقِذني.. أنقِذني أيها العظيم".

تصلبت مكاني كوتد شجرة لم يحن خريفها بعد. بقوة تمسَّك بذراعيّ، وتكرَّر نفس المشهد حين رأيت قدميه تنغرسان في الأرض لتبتلعه مجددًا.

كانت الأرض تسحبه بجوفها وهو يحاول التمسك بي بقوة، يصرخ :"اغفر لي.."



ينظر لأسفل والأرض تأكله، ثم ينظر لي في ذعر أكبر، ويمسك بي بقوة أكثر ويصرخ: "أخبره أنني أعتذر.. الآن أعلم أنه حقيقي.. الآن أعلم أنه موجود".

إنسانيتي حاولت جذبه للخارج رغم إلحاده وإنكاره لوجود الخالق وادعائه الكذب، كان كفرعون حين تحولت المياه من جسر الأمان لموسى، لقبر الكافرين الآثمين.

حاولت إنقاذه، ومع أول لمسة لجسده دبَّت فيه النيران. صار يشتعل.. يحترق.. يصرخ.. شفتاي صارتا تبتسمان رغمًا عنّي، أجبرها على الصمت فتأبى الانسياق معي.. أضحك وأنا لا أضحك.. أسخر وأنا حزين.. رأيته يُدفَن في الأرض محترقًا، كنت كالمسجون بداخلي، كلما حاولت الصراخ رفض كل جسدي التنفيذ..

محاولات عِدة والأرض تشرف على أن تنتهي.. اقتربت منه رغم النيران، وأمسكت رأسه جاذبًا إياها لأشعل بها

النيران أكثر، بطريقة لا أفهمها، ولأخذ جرعة كافية من صرخاته قبل غرقه بوحل الأرض.

صرخة، كانت كفيلة بأن أستيقظ صارخًا أنا أيضًا، والخادم يهرول تجاه غرفتي يفتحها بسرعة وينظر لي في شفقة.. بسرعة سألته:

- ألطفي مازال على قيد الحياة؟!

في البداية بدا لا يفهم.. ولكنه تخلص من تلك المرحلة سريعًا وبدت على وجهه نظرة حذر غريبة ..

- أتقصد الكافر؟!

- أكان الجميع يعلم أنه الملحد سواي؟!

- بالتأكيد فلم أكن أعلم أنه هنا من الأصل.. لم أرَه نهائيًّا من قبل، ولم أتوقع أن هناك أحدًا في القريه وصل للمرحلة الجامعية.

- نعم أظن ذلك..



زاد تعجب الخادم كثيرًا وهو يتمتم بصدمه..

- مات..

دون إرادة تساءلت:

- محترقًا..

رأيت قطرات العرق وهي تبرز على وجهه من شدة الاندهاش.

- كيف علمت؟! يا إلهي ماذا يحدث لي؟!



- 6 -

ريتشارد

الانفصال عن الأوراق كان عملًا شديد الإرهاق . كنت أشعر وأنا أقرأ الكلمات أنها تصير كجزءٍ لا يتجزأ مني. في بعض اللحظات شعرت بأن الأب يشبهني كثيرًا جدًّا؛ فهو ذكي كما قالوا عني، وأيضًا لديه موهبة تقريبًا كالتي لديّ؛ فهو يحب تمييز الناس بصفات خاصة بهم -كما اعتدت أنا أن أفعل- وهذا مرجَّح أن يكون أحد أسباب تعلُّقي بالكلمات، ولكن هناك شيء آخر؛ كلما توغلت في الاعتراف الثاني الذي تلاه صاحب "عين الخطئية" كما لقّبه "إسحق يعقوب"، كنت أرى محمود -ثقيل اللسان-، كانا يشبهان بعضهما كثيرًا، لا أعلم في أي شيء، ولكنني أحيانًا كنت أشعر أنهما شخصٌ واحدٌ، وما سرده "الأميّ" عن ذلك الصديق الملحد شعرت أيضًا أنه يميل إلى مينا صديق محمود الذي رأيته أمس في مباراة كرة القدم بين الأهلي وخصمه.. أشياء كثيرة حولي لا أفهمها ولا أفهم معناها، وهنا لاحت لي خاطرة عن كلمات قرأتها في



الأوراق.. أو سؤال بتعبير أدق سأله "الأميّ" للأب؛ عن إشارات الرب وكلماته.. هل يمكن أن يكون ما أنا فيه إشارة من إشارات الرب؟!.. أهكذا شعر الأب حين وُجِّه له السؤال وبدأ في ربط أحداث الاعتراف الأول بالثاني، ولكنه ظل غير مدرك ما سبب قتل الملحد والتائب في أحلامه، وكيف تحوَّل حلمه لحقيقة؟!

كنت في إرهاق كبير لم يسمح لي باستكمال القراءة الآن، وطاوعت نفسي وسمحت لنا بقليلٍ من الراحة، وكنت أحاول ألا أفكر في كيفية وصول جزء من ذلك الاعتراف إلى المشتاق ليتم نشره، من الممكن أن أكون قد شعرت بالخوف من أن تترسخ بداخلي فكرة الانفصام وغيره من الأمور، وأن التجاهل هو السمة الأسمى في الوقت الحالي.

منذ أن خطوت بالأمس على أرض تلك المنطقة، لا أذكر أنني قد دخلت إلى الشرفة نهائيًا؛ لذلك قررت أن ألقي نظرة منها على الشارع، وبالفعل فعلت.. ولفت نظري كثيرًا عجوز بنصف وجه محروق متآكل البشرة محني

الجسد داخل ردائه البالي الأسود، متعكزًا على عصا رديئة وهو يصرخ:

- النار بتتكلم.. النار بتتكلم فوقوا كلكوا.. فوقوا قبل فوات الأوان.

ينظرو له البعض ساخرين، وأُخَر شامتين، والقليل مشفقين، وبقيت أنا أفكر قليلًا في كلماته. رفع بصره ونظر لي مرتبكًا، ثم نظر إلى السماء وصرخ بصورة أقوى هذه المرة:

- ارحمني يا يسوع..

خرج أحدهم من حانوته الذي فهمت من اسمه أنه مكان مخصص لبيع الأكفان الإسلامية، وأشاح بيديه مدافعًا وصارخًا:

- بطّل جنان أمك ده.. يسوع مين اللي يرحمك، قول يا رب..

نظر العجوز ناحيتي ولكن كأنه يرى سرابًا، وقال باهتزاز أكثر هذه المرة:

- اعذره.. مايعرفش اللي احنا نعرفه.. ماشافوش اللي احنا شُفناه.

رمقني بائع الأكفان باشمئزاز وتركني وعاد إلى حانوته. تحركت بحدقتيّ ناحية العجوز، ولكن منظر الجميع وهم ينظرون لي بنظرة لا يمكن أن أنساها، وتلك الابتسامة الحمقاء تزين وجوههم جميعًا تراجعت للخلف ثلاث خطوات وأغلقت الشرفة بسرعة واستندت ناحيتها وصدري يعلو ويهبط سريعًا وأنا مذعور.. ما الذي يحدث؟!

مرت عدة ساعات وأنا ساكن وحدي، لا حركة، لا صوت، سوى تشويش التلفزيون المؤنس لي والمطمئنْ على أن حاستي السمعية مازالت تعمل. حاولت إراحة عقلي قليلًا، وبدأت في التقليب بين القنوات بحثًا عن شيءٍ يلفت نظري. توقفت عند إحدى القنوات الدينية الإسلامية كانت المذيعة تنظر للداعية الإسلامي وهو

يستفيض في شرح قصة ما. رغم علمي الواسع في دراسة الأديان واهتمامي البالغ بالإسلام واليهودية والمسيحية إلا إنني لم أسمع تلك القصة من قبل، نظر الشيخ للكاميرا وقال:

- الرسول كان يقدر يسحق أهل مكة والكفار كلهم بدعوة واحدة منه، ولكنه رفض..

رفض عشان كان لازم ياخدوا فرصتهم كاملة..

عادت الهمسات تظهر في أذني مجددًا، وصارت أكثر وضوحًا هذه المرة، ولكنها مازالت غير مفهومة، ولكنني أشعر أن هناك قوى خفية تريد أن تقول لي شيئًا، ولكنني غير قادر على سماعهم. تشتت انتباهي لحظة عن حديث الشيخ الذي حين انتبهت له مجددًا كانت المذيعة تقول:

- و بكده تكون انتهت حلقتنا النهارده.. نشوفكم بكرة.. تصحبوا على خير وسعادة.

وهنا أخذت أفكر طويلًا في كلمات الشيخ التي تمكنت أذني من استخلاصها، وتجاهلت الهمسات نهائيًّا، حتى شعرت أنها اختفت. صمتُّ قليلًا ورأيت نفسي أهمس بداخلي: "الأب في الاعتراف كان يخشى سماع الناس لأنه يعلم أنه حين يغضب من أحدهم يموت!.. رسول المسلمين كان يعلم أن دعوة وحيدة كفيلة بإزالة مكة بأكملها.. كلنا متشابهون رغم إصرارنا على صنع الاختلافات والحروب.. كلنا واحد من أصل واحد، ولكن نحن من نصنع الفروقات، نحن من نصنع الطبقية ونحطمها.. كيف لخطين ظننت دائمًا أنهما متوازيان أن أراهما في لحظة يتقاطعان؟ وكيف أرى تشابهًا بين رسول المسلمين والأب إسحق يعقوب وبيني حينما قتلت أمي بمشاعري..

وبقيت رويدًا أفكر كثيرًا في الماضي، فيما تعلمته، في كل شيء. تذكرت يسوع وهو على صليبه يطلب من الأب الأعظم ألا ينتقم من اليهود؛ فهم جاهلون بكل شيء، يتبعون الضلال وهم لا يعلمون.. وطاف بي الزمان وثقة موسى قوية؛ فانشق البحر طواعية لعصاه



وأفاض بها الروح، فكانت كالحية تسحق كيد فرعون.. كان واثقًا أن كل شيء رهن إشارته.. كان يمتلك ما امتلكه الأب حين استمع وتمنى قتل الملحد.. كلنا واحد.. ولكن نمط الإيمان مختلف!

طرق أحدهم الباب ثلاث مرات متتابعة، ثم توقف للحظات وتعالت ضحكات مختلفة بين العديد، وتتابَع الطَّرق بحدة أشد بعد بعض الكلمات من الاستظراف السمج، فتحت الباب، كان مينا يبتسم ساخرًا وكأنه صديق الطفولة، وانسل إلى الداخل دون استئذان، وبدا مَن كانوا معه محرجين قليلًا فقال لهم ضاحكًا:

- ادخلوا.. ادخلوا.

قال الأول:

- أنا محمد.

وردَّ الآخر ..

- وأنا كريم.

تركتهم يدخلون بابتسامة وانسللت خلفهم غير فاهم أيضًا ما الذي أتى بهؤلاء إلى هنا، على أي حال فلا لي علم بهم سوى نظرة واحدة ذلك الـ "مينا" المتعصب الكروي الذي -ومن نظرتي الأولى- شعرت أنني لا أطيقه ولا أرتاح حينما أنظر إليه.

قال مينا ..

- بص يا ابن ديني انت جديد هنا والنهارده الخميس، ومن النهاية هتوفر علينا تعب ياما أوي، وهيكونلك من الحب جانب، موافق ؟!

هل أنا من صرت غبيًا أم من حولي حقًا يقولون أحاديث أنا لا أفهمها؟ امن المفترض الآن أن أكون فاهمًا ما يقوله وأيضًا لدي إجابة على سؤاله بالموافقة أو الرفض. دون إرادة استطال صمتي، وفضحت نظرتي عدم فهمي؛ فانفجر محمد وكريم ضحكًا، وقال محمد لمينا:

- ده مش فاهم أي حاجة من اللي انت قولتها.



رأيت نظرة الاستغباء في عين مينا بشكلٍ استفزني، لم أعتَد أن ينظر لي أحدٌ مثله، لم أرَ في الجميع سوى الاحترام والرهبة مني، إما أن أكون أنا الغبي، أو أحدهم، ذلك الشعور كان يؤرقني كثيرًا.

- بص يا عم ريتشارد أنا هفهمك بالراحة.. انت عارف ظروف الدنيا والعيشة، والمسيح الحي أنا لو أقدر أتجوز ماكنت اتأخرت بس هعمل إيه مفيش حل غير كده!

بقيت ناظرًا له، وشعرت أنني قد بدأت أفهم الأمر، ولكنه مازال غير واضح تمام الوضوح.

- تمام.. والمطلوب؟!

لاحظت نظرة الارتباك في عيون محمد وكريم وهما ينظران لبعضهما منتظرين استجابتي لأمرٍ هام غير مطمئن بالمرة، وأردف مينا:

- أوضة النوم.

فزعت من اللفظ وهبط كصاعقة على رأسي.

- انتوا شواذ؟

محمد كأن أحدهم طعنه في قلبه بخنجر بارد فصرخ فيّ:

- لا.. لالا.. إنت فهمت غلط خالص.

ضحك مينا كثيرًا:

- لا للأسف إحنا بنحب الفطرة والطبيعة.. من الآخر معانا واحدة، لو سِبتلنا أوضة هنسيبهالك نص ساعة.. وعلى حسابنا.. صدقني هتعجبك أوووووي!

كأنني موافق انطلق كريم يصرخ مازحًا:

- بس أنا أول واحد خد بالك.

رد عليه مينا ضاحكًا:

- أنا اللي معايا النمرة على فكرة.

- واشمعنى هنا؟

كان ذلك سؤالي الجاد الذي قطع حديثهم العبثي الساخر والذي أربكهم قليلًا كأن ليلتهم من الممكن أن تضيع في حالة عدم موافقتي.

- علشان محدش فينا عنده مكان.. كلنا عندنا أهل واخوات.. إنما انت لوحدك.

إذًا تفهمت الأمر الآن، وبالتأكيد كان يستحيل الموافقة على ذلك العبث؛ فنهضت في إشارة لطردهم وقُلت بلهجة قوية:

- مستحيل.. شوفوا لكم مكان تاني.

كاد كريم أن يقول شيئًا قطعه مينا بإشارة من يده، وقال موجهًا إليّ الحديث:

- مفيش مشكلة يا ابن ديني.. مفيش مشكلة.

تحرك تجاه الباب وتبعه الآخرون منكسين الرأس. فتح مينا الباب ليجد الفتاة على الباب حاملة صينية ممتلئة

بالطعام مجددًا كنوع من الضيافة المبالغ فيها، ولكن هذه المرة كانت وحدها؛ ففزعت الفتاة لوجود زائر لدي؛ فنظر لي مينا مرة أخيرة وابتسم.

- مش كنت تقول!

ورحل يهبط الدرجات والفتاة تنظر ناحيته، ثم وجهت إليّ الحديث:

- تعرفهم؟

أجبتها وأنا أجلس على أحد الكراسي القريبة من الباب وأشرت بيدي تجاه الآخر لتجلس الفتاة، وأجبتها:

- لأ..

سحبت الكرسي من تعانق طاولة السفرة، وضعت عليها الصينية، وكشفت عن أطباق الطعام وقالت:

- على فكرة دول مش كويسين خالص.

أومأت برأسي مصدقًا على كلامها ثم سألتها:

- اسمك إيه؟

- مريهان.

أخذت أتفحص الطعام من طبقٍ لآخر، أرى أنواعًا عديدة من الأجبان تحيط بطبقٍ من الفول وأرغفة العيش وغيرها.

- تعبتِك معايا..

قامت من على الكرسي وتوجهت تجاه الباب لتخرج منه مردفة أو تهيأ لي أنها تتحدث، أو ربما ما تمنت أذني أن تسمعه:

- كله سبيل الملكوت.

أمسكت بمقبض الباب وأغلقته وهي تنظر لي بابتسامتها ورحلت وقلبي ينقبض بقوة، ولا أذكر هذه المرة أنني لاحظت أي شيء من أنوثتها كالمرة السابقة؛ فحللت أن الأولى كانت لعرض الجمال الظاهري وهذه



كانت لبث الجمال الداخلي ولن أنكر أنها نجحت في كلتيهما!

انتهيت من العشاء وكان الليل قد هجم سريعًا وأخذت أتقدم خطوة وأتباعد خطوة لاستكمال جزءٍ جديدٍ من الاعتراف رغم ثقل جسدي وحاجته إلى النوم، ولكن قراءة ذلك الشيء فقدت جزءًا من رونقها حين تحول من التطلع لقراءته إلى فرضٍ لاستكمال البحث للجريدة.



- 7 -

مذكرات إسحق يعقوب

سبع ليالٍ لا أفارق الصلاة؛ ليرحمني الرب من معاناتي. أحيانًا كنت أحسد موسى حين كشف الله عنه الساتر وصار هو كليم الله، ولكنني أمقت حالي الآن؛ لأنني شعرت في لحظة أن الرب يتذكرني، بل كما هو واضح الآن أنه اصطفاني لأمرٍ هام عظيم.

أعلم أن الأمر يمكن أن يكون من قبيل الصدفة!

ولكننا اعتدنا دائمًا بأن نلقب ما يعجز العقل عن تفسيره بالصدف أو الحظ أو أي شيء لتهدئ من روع عقلك وتناسينا القدر ومشيئة الرب.

جلست يومًا وحدي في الليل أتخيل حياتي حين تولَّد بداخلي اليقين من قدراتي على قتل ما يحلو لي بعقلي، عن كوني إنسانًا أعظم من البشر زُرع على الأرض، الأمر كان أشبه بأفكار متضاربة غير متزنة بدأت بخاطرة.

هل هناك مثلي في العالم؟ أم أنا فقط من يمكنني فعل هذا؟

لا أجد إجابة فأصمت وأغرق مرة أخرى في بحرٍ طويل الأمد من الخواطر غير المنتهية حتى أرسو على شاطئ خاطرة أخرى.

أيمكنني القضاء على كل إنسان بهذا الكون، أم أن قدراتي تكمن فقط داخل حدود القرية؟

طرقَ الخادم الباب على غير العادة.

- هناك عجوز يودّ الاعتراف لك، أبونا.

توقفت للحظات أتامل كلمات الخادم.. عجوز.. يعترف..

مستحيل!!

فحياة هذا الرجل بكل تأكيد بها ما يكفي ليقنع عقلي بضرورة قتله؛ فأنا لم أتعافَ بَعد من الحادثة السابقة لأتسبب في جريمة قتل أخرى.

نظرت تجاه الخادم أفكر في حجة مناسبة هذه المرة للاعتذار عن هذا الأمر وقد بدا أنه ينتابه الكثير من الشك ناحيتي وغرابة تصرفاتي.

- أيمكنني...

لم أكمل قبل أن يضيف هو إلى حديثه:

- أعلم أنك في حاجة إلى الراحة أيها الأب؛ فأنت قد سمعت ما لم يسمعه أحد هنا. حَمْل أسرار أهل قرية بأكملها ليس بالأمر الهين. استرح وسأخبره أنك في حالة صحية لا تسمح لك بالاستماع الآن، وأن يسوع سيغفر له بكل تأكيد، وسأطلب منه العودة في وقت لاحق، استرح أبونا.

كأنه أزال عن عاتقي عبئًا ضخمًا، ولوهلة غفلت أنه بدأ يرتاب من ناحيتي، وبدأ يشك في أنني غير قادر على تحمل تلك المسئولية فيما بعد، وقد آن الأوان أن تختار الكنيسة قسًّا راهبًا آخر لاستكمال مسيرتي، ولكنني لم أكن في مزاج جيد لفهم كل تلك الأمور،



وأيضًا لست في حالٍ يسمح لي بأن أتحمل إزهاق روح أخرى دون قصد باصطفاء أراه أنه ليس حكيمًا.

غادر الخادم وتركني وحدي. تلاشت الأنوار وعاشرت الظلمات، ارتسمت الصليب على صدري وبدأت بمناجاة أخرى للرب لإعفائي ولحمايتي من شيطاني، ومحاولة بائسة لا رجاء منها لإقناع الرب بأنني بشر متواضع وتحمُّل تلك المسئولية قد يحولني لشيطان، ويكون إزهاق الأرواح لا لإرضائه فقط بل سيكون حسب هواي.

بدأت صلاتي تشرف على الانتهاء وعقلي ينغمس في الأفكار، يتخيل الفتاة قبل ذبحها في أوج ضعفها وصرخاتها، وشدة آلامها التي تفتك بها، وذلك المتحدي للرب في علاه وهو يأمرها أن تتذلل له، وينظر له ويعلن تمرده من أسفل السافلين، واستنكرت كثيرًا تأخُّر رد الرب عليه كل هذا الوقت، كان بإمكانه أن يُسقِط عليه صاعقة من فوق السماوات لتفتك به، لتقسمه لنصفين، وكان بإمكانه أن يشل يديه ويعمي عينيه، وكان بإمكانه فعل أشياء كثيرة جدًّا.

غفوت وأنا على وضعي؛ من صلاة غير مكتملة وأفكار غير متناهية، ورأيت نفسي بأحد الأماكن. كانت غرفة شِبه خالية تشع منها رائحة كريهة من جميع زواياها. كان بابها أمامي مغلقًا. شرعت في الإمساك بالمقبض، ولكنه سبقني وانفتح من تلقاء نفسه مصدرًا صوت الاحتكاك شديد الإزعاج. خرجت من الغرفة وأخذت أمشي بالأرجاء غير فاهم هذه المرة ماذا سيريني المنام، وعن أي إنسان سأقتله. الآن أعتقد أنني بدأت في فهم الأمر، إن رؤية الموت تأتي غالبًا كل أسبوع بميعاد محدد؛ في الساعات الأخيرة من ليلة الخميس.. لم أمنع نفسي من تذكُّر خميس العهد وليلة العشاء الأخير واللمحات الأخيرة من حياة المسيح قبل التصاقه بالصليب وانتصاره على شبح الموت. كنت أري نفسي تلميذًا للرب يجعله يرى ما لايحق أن يراه، ولكنني أظن أن الله يعلم ما لانعلمه نحن.

كانت الشقة تخلو من البشر، ولم ألاحظ قط ذلك المعتلي جدار شرفته الذي ظل هكذا موجهًا ظهره للخارج ووجهه ناحيتي. صرخ بي ليلفت نظري تجاهه.



غفوت وأنا على وضعي؛ من صلاة غير مكتملة وأفكار غير متناهية، ورأيت نفسي بأحد الأماكن. كانت غرفة شِبه خالية تنشع منها رائحة كريهة من جميع زواياها. كان بابها أمامي مغلقًا. شرعت في الإمساك بالمقبض، ولكنه سبقني وانفتح من تلقاء نفسه مصدرًا صوت الاحتكاك شديد الإزعاج. خرجت من الغرفة وأخذت أمشي بالأرجاء غير فاهم هذه المرة ماذا سيريني المنام، وعن أي إنسان سأقتله. الآن أعتقد أنني بدأت في فهم الأمر، إن رؤية الموت تأتي غالبًا كل أسبوع بميعاد محدد؛ في الساعات الأخيرة من ليلة الخميس.. لم أمنع نفسي من تذكُّر خميس العهد وليلة العشاء الأخير واللمحات الأخيرة من حياة المسيح قبل التصاقه بالصليب وانتصاره على شبح الموت. كنت أري نفسي تلميذًا للرب يجعله يرى ما لايحق أن يراه، ولكنني أظن أن الله يعلم ما لانعلمه نحن.

كانت الشقة تخلو من البشر، ولم ألاحظ قط ذلك المعتلي جدار شرفته الذي ظل هكذا موجهًا ظهره للخارج ووجهه ناحيتي. صرخ بي ليلفت نظري تجاهه.

توجهت له وأنا أراه معلقًا بحبلٍ ويستعد لخنق رقبته، نظر لي وتعالت ضحكته مستهزئًا:

- ليس هذه المرة.. أنا انتصرت.. هو مَن تحداك واليوم تنتقم منّي أنا.. لن أدع هذا يحدث.

بدأ يترك الإحكام بتوازن جسده وأغمض عينيه بابتسامة تتسع كل لحظة وجسده بدأ في التمايل إلى الخلف، شعرت بغليان يجري في أوردتي.. نعم تمنيته أن يموت، ولكن ليس بقرارٍ منه.. أريده ذليلًا يترجاني أن أنقذه ثم أُشعِل فيه النيران أو تبتلعه الأرض، أما بقرار منه.. فلا.. أمسكت بسكين كان موضوعًا على الطاولة وجريت ناحية الحبل، بدأت في قطعه وهو يتأرجح في الهواء وأنفاسه توشك على أن تنقطع تمامًا، وبمجرد أن تمكنت من قطع الحبل، حتى عدت من غفلتي.

كنت أرتجف خوفًا وفزعًا، نهضت من مجلسي وانقطعت صلاتي، كنت أجري خارجًا من الكنسية. كان لابد لي ألا أتخذ من السلبية صديقًا، وقد يكون

اختباري ليس قتل البشر ولكن مَنْحهم الحياة.. ماذا إن كنت قد فهمت الرؤى بشكل عكسي طوال هذا الوقت؟!.. كنت أجري كالمجنون الذي خسر عقله والجميع نيام.. أهرول في الشوارع ناحية بيت ذلك المنتحر الذي لا أعلم له اسمًا ولا صفة، أحاول الإسراع ناحيته لعلي أنقذ ما تبقى منه.. لن أدعه يموت حتى إن تمنيت موته، وخصوصًا أن يدي متلوثة بدمائه بطريقة لا أفهمها.

حين صار البيت على مدى بصري، شعرت برعشة في مؤخرة رأسي وأنا أراه يقف على جدار الشرفة وحبل الموت كالحية يلتف حوله، يرفع يديه كالحاضن للهواء، ويفقد توازنه وهو يسقط، متزامنًا ذلك مع دمعة عيني.. لينعكس سقوطه على بريق لمعانها.

مرت بضع ثوانٍ والجسد يتأرجح في الهواء، وبدا لي أن السقطة لم تحطم عظام رقبته، وصار الاختناق هو لحظة انسحاب روحه الآثمة، رأيت من يرتدي السواد يقف خلف الجدار في الشرفة، تقدمت خطوات عدة وأنا لا أفهم..

أو لا أريد أن أفهم..

أتمنى ألا يكون ما أفكر فيه صحيحًا..

أتقدم خطوتين..

والصورة تتضح مع كل خطوة..

بالفعل كما ظننتُ..

كان أنا!!

كنت أقف فوق، أمسك بيدي سكينًا وأقطع الحبل..

كانت ملامحي مخيفة متعطشة للموت وسَلبْ روحه..

تراجعت للخلف وعيني لا تفارق المشهد قبل أن أنوي الهرولة عائدًا إلى الكنسية، قلبي يكاد أن يخرج من صدري، وسمعت لحظة ارتطام الجسد بالأرض بعد أن قطعت أنا حبال موته في لحظة وقفت أشاهد نفسي من الأسفل.

أغلقت باب صومعتي الصغيرة، وأسندت ظهري للباب بعينٍ شاردة غير مستوعبة ما حدث، ودموعي تنسال رعبًا لأول مرة منذ طفولتي.. رعبٌ لم أشعر به على مدار سبعة عقود كاملة.. سبعة عقود ظننت أنني أخذت من العِلم منتهاه وفي لحظة رأيت سور علمي ينهار أمامي بنقطة من فيضان محيط الإله الثائر.

وفي الساعات الأولى من صباح الجمعة، مع ظهور شعاع الضوء الأول في السماء في ليلة لم أعرف بها النوم سوى تلك الغفوة السابقة. كانت الصرخات الآتية من الشارع واضحة، توجهت ناحية النافذة الضخمة بغرفتي، ورأيتهم حاملين الشاب ملقين به بداخل سيارة الإسعاف وسط همزات ولمزات أهل القرية وحالهم لا يختلف عن حالي كثيرًا؛ فاعتقادهم الوهمي بأمر ما يسمى بالنداهه كفيلٌ بأن يجعل رعبهم أضعافَ ما أشعر به.

يومٌ آخر مرَّ، ومثيله جاءني.. اعتكفت وحدي دون غيري، صراع داخلي غير منتهٍ، عقلٌ متطلع وقلبٌ متفانٍ وهمسات حولي لا مصدر لها، بالفعل أشعر أن

الجنون قد يصيبني بين لحظة وأخرى ولا زائر لي سوى خادمي الودود.

رفضت مقابلة الجميع، خشيت عليهم منّي. كان الرعب يراودني كشبح موتي. رفضوا العبور لجحيمهم الأبدي الممتد مكثت مجددًا وخادمي قدمَ إليّ يعرض عليّ الانسحاب من الكنسية، وأن أكتفي إلى هذا الحد، ولأنني مازلت بشريًا ولست إلهًا كاملًا، رفضت.. رفضت الابتعاد وشعرت أنها خيانة للرب بعد اصطفائه لي.. أو أنني ادعيت هذا السبب حتى لا أترك المنصب.. الإنسان متطلع دائمًا لقوة السُلطة، يعشق تملكها حتى إن مقتها.. ألم يفكر الرب ذات مرة أن يتنازل عن ألوهيته ويكون مثلنا على الأرض ليفهمنا جيدًا.. نتطلع دائمًا لحاكم من زوينا حتى يعرف مطالبنا ويشرف على خدمتنا، ولكن الرب ليس منّا ولن يكون أبدًا.

ومع أولى ساعات الليل، أبلغنا أحدهم أن ذلك الفتى لقي مصرعه بالمستشفى منذ الليلة الأولى لبداية تلك اللعنة, وجميعهم حالات غريبة دون قاتل؛ فالأول مرجَّح غرقه إثر تعثُّره بشيءٍ في الظلام، والثاني قُتِلَ

على يد أحدٍ مجهولٍ، والثالث حاول الانتحار ليفشل في البداية، ثم يتحقق مراده بعد ساعاتٍ، والثلاثة أشعر أنني متورطٌ في قتلهم بطريقة لا أعلم كيف، ولكنني واثقٌ أنني رأيتهم يموتون.. الأمر مرعب، ولكنه بأي حالٍ من الأحوال ليس طبيعيًا أبدًا.. فالسؤال هو: هل شاركت في قتل هؤلاء.. كيف؟!.. مازلت لا أعلم الإجابة حتى الآن.

ست ليالٍ أحاول إقناع الجانب البشري الطامع بداخلي؛ بأنه لابد من نهاية لهذا الأمر، والتوقف حالًا عن زهق الأرواح غير الطاهرة وغير البريئة. أحاول إقناعه أن ما يحدث غير صحيح؛ فالرب إذا أراد موت أحدهم لن يحتاج إلى وسيط.. ست ليالٍ وبشريّتي ترفض وتحاول إرجاع كل ما يحدث للصدف والأقدار، ولكن مستحيل أن تصدق الصدف والرؤى ثلاث مرات. كنت أخشى الليلة السابعة.. كنت أعلم أنه مازال متبقيًا الأخير ومن المرجَّح أنه زائر اليوم.

تمكنت من أخذ القرار والعزم على أن تكون ساعات المغرب هي الأخيرة لي في هذا المكان؛ فلن أمكث هنا

أكثر من ذلك، حتى إن اضطررت ادعاء الكفر والإلحاد حتى يطردوني من هذا المكان؛ فلن أتحمل قَتْل آخر بطريقة غير مفهومة.. فيكفي لهذا الحد وليسامحني يسوع عما بدرَ منّي وهو يعلم أنني لا أفهم كيف؟

بدا الجميع يلاحظ تغيُّبي، خصوصًا تخلفي عن جنازة طالب العلم الملحد، وكانت أكبر سخافة أن نقيم له جنازة مسيحية رغم عدم اعترافه بها!

خرجت للأنوار وتوقفت وسط الأخشاب المتراصة الخالية إلا من واحدة. نظرت للمكان نظرة وداع وأنا أنوي إبلاغ الجميع بانسحابي من هذا المكان، وأتمنى ألا يطلبون منّي إبداء أسبابي، وألا يحاولوا مماطلة الأمر؛ فحديثي معهم سيكون من باب العلم بالشيء ولإخبارهم أنني خلال ساعات سأغادر المكان سواء جاءوا بآخر أم لا.. أتت إليّ باسمة لأول مرة بعد أن نسيتها تقريبًا ونسيت ذلك الجسد والعيون الذابلة وتجاعيد بشرتها، وأخيرًا نظرتها الساخطة نحوي أنا والتائب الغريق.

تحركت ناحيتي، حاولتُ المراوغة والهرولة بعيدًا، ولكنها نادتني بأعلى صوت امتلكته يهز المكان هزًّا:

- أبوناااا..

توقفت مفزوعًا من ندائها وقلبي يرتجف:

- أبونا!. أليس من السخيف أن يظهر في قريتنا قاتل متسلسل؟!، الخاتم أخبرني بالحقيقة وأنت سبق وأن علمتها من اعترافاتهم، أنت فقط لا تؤمن!.. لا تصدق!.. عاجز عن الصمت وأيضًا عاجز عن الحديث، حان الوقت لتحدِّد موقفك؛ فلم يعد هناك نقطة حياد.. إما مع إما ضد.. إما تؤمن إما لا.. إما خاتم يسوع إما..."

كنت لا أسمعها ولا أفسر كلماتها..

- أعلم أنك خائف.. مذعور؛ لهذا جئت إليك.

تأملت بشرتها المجعدة رغم صغر سنها، وأحسست بشدة آلامها ووجعها الدفين داخلها. هالتها كانت

كالمجال المغناطيسي الملتف حولي يقيدني، لم تكن باكية، بل بشراسة نظرت لي نظرة حملت الكثير، أثارت بقلبي رهبة، لا أعلم لماذا حينها تذكرت العذراء عندما لازمَتْ الصلاة بالقبر المقدس قبل تنيحها وانتقالها من عالمنا الزائل الضعيف، إلى المجد الأعظم في كنف الرب.. تذكرت صرخاتها وتوجُّعها وهي ترى الابن مصلوبًا غارقًا في دمائه عاجزة عن المساعدة.. رغم تضحيته العظيمة إلا إن أمه الطاهرة كانت لها الكلمة العليا.

- يومها كنت مجرد طفلة صغيرة.. لا أذكر الكثير من التفاصيل، ولكنني أذكر القدر الكافي لأجعلك تحصل على الرؤية كاملة.

غابت حدقتاها داخل ما دُفِنَ بداخلها، تعلمت من خبرتي أن أفرِّق جيدًا بين إن كنت أول سامع لما يقال أم لي شريك في الأمر. أنصتّ لنبرتها التي ميزت منها أنني أول سامع لاعترافها، وأن تلك الكلمات لم تذكرها لأحد قَط.

- كان مجتهدًا، يعمل، كنت أعلم وقتها أنه يعاني من اضطراب نفسي كبير بسبب ديونه الكبيرة، أحيانًا كانت أذني تلتقط كلمات عن الإدمان وخلافه من الأمور التي لم أكن أفسرها في ذلك الوقت .

كنت أتجنب النظر لعينيها حتى لا أشتت تفكيرها وتكف عن البوح بما لديها، متتبعًا صمتها الذي طال، مجبرًا إياي على اختلاس نظرة لعينيها لأرى تلألؤ دموعها بداخلها.

- أما عنها فكانت ملاكًا يعيش بالمكان، كانت جميلة، هادئة، محبوبة من الجميع، رغم كل ما حدث كانت تحبه وتسانده، تحاول جاهدة تخفيف الأحمال عنه لعله يعود لرشده ذات يومٍ تتمناه هي أن يكون قريبًا.

أحاول أن أستنبط من كلامها أي كلمة ذات معنى، كالبحَّار الباحث عن الblock_9 وسط تجمُّع الغيوم، ولكنها استمرت في تكملة ما حدث لها.

حيث كان أبوها منهمكًا في عمله مرتعش الحدقات متعرق الجسد كريه الرائحة. كان كالسكير بلا خمر، كالنائم بلا أحلام، كالحاضر بلا جسد. تعاونت عليه شياطينه فصار كالخادم بلا عقل ينساق خلفهم دون وعي، متحركًا إلى غرفة "حاملة الشعلة" التي كانت في منتصف عقدها الأول.. كانت نائمة كملاكٍ تجرَّد من البشرية.. ينسال شعرها الأشقر ويشع بياضها في الأرجاء، اقترب منها كالمسعور.. تلوثت جبهتها بنجاسة يده، ثم تلطخت بلعابه المنسال عليها يقبّلها بنهمٍ، تبسمت هي في البداية ثم انقبض قلبها من سخونة أبيها وسرعة قبلاته المخيفة التي تحولت من قبلات عطفٍ وحنانٍ لرصاصات تخترق جسدها.

كل شيء سريع، و"حاملة الشعلة" صامتة كطيرٍ جريحٍ مقطتف ريشة عاجز عن التحليق وسط سماء تعبأت بالغيوم، وهبت رياحها قازفة إياها متمزقة على أثر صعقات برقها الشرسة.

أضيء النور فعمي بصرها عن واقع مؤلم وليد غفوة تناثرت بها ألاعيب إبليس؛ فكان كل شيء كبياض

عادم ينتفض أمامها يقتطع ملتقى نظراتهما، والأم على باب الغرفة تصرخ كطير يبكي على حطام بيضه.

بغلظة انتزعته من على جسد ابنتها الملتهب، انهالت عليه بالصفعات تجذبه للخارج وسط صمت وسكون من جانبه و"حاملة الشعلة" تتمدد ناظرة للسقف، تغمض عينيها وتدفن رأسها أسفل وسادتها، والأم تسب الأب الذي لم يستطع سوى قذفها ناحية الحائط وهرول تاركًا بيته مقرفصًا بركن المصعد، دافنًا رأسه بين ذراعيه، ينتفض جسده. وبعد أن تلاشت غفوته وسخر منه شيطانه وشعر بالذل والانكسار، شعر بالخساره والهزيمة؛ فغفوة للحظات حطمت حياته تمامًا، خسر معها ما تبقى من حب داخل زوجته ومن عطف ابنته.. للحظات طردَ من عقله فكرة الاعتذار؛ فأي اعتذار سيصلح عذرية ابنته التي تلاشت بشيطانه!

ولكن الأمر ازداد تحطمًا وانكسارًا عندما انهالت الصرخات الآتية من الشارع بعد دوي اصطدام قوي انتفضت له السيارات وارتعشت أضواؤها وتعالت



عادم ينتفض أمامها يقتطع ملتقى نظراتهما، والأم على باب الغرفة تصرخ كطير يبكي على حطام بيضه.

بغلظة انتزعته من على جسد ابنتها الملتهب، انهالت عليه بالصفعات تجذبه للخارج وسط صمت وسكون من جانبه و"حاملة الشعلة" تتمدد ناظرة للسقف، تغمض عينيها وتدفن رأسها أسفل وسادتها، والأم تسب الأب الذي لم يستطع سوى قذفها ناحية الحائط وهرول تاركًا بيته مقرفصًا بركن المصعد، دافنًا رأسه بين ذراعيه، ينتفض جسده. وبعد أن تلاشت غفوته وسخر منه شيطانه وشعر بالذل والانكسار، شعر بالخساره والهزيمة؛ فغفوة للحظات حطمت حياته تمامًا، خسر معها ما تبقى من حب داخل زوجته ومن عطف ابنته.. للحظات طردَ من عقله فكرة الاعتذار؛ فأي اعتذار سيصلح عذرية ابنته التي تلاشت بشيطانه!

ولكن الأمر ازداد تحطمًا وانكسارًا عندما انهالت الصرخات الآتية من الشارع بعد دوي اصطدام قوي انتفضت له السيارات وارتعشت أضواؤها وتعالت



عادم ينتفض أمامها يقتطع ملتقى نظراتهما، والأم على باب الغرفة تصرخ كطير يبكي على حطام بيضه.

بغلظة انتزعته من على جسد ابنتها الملتهب، انهالت عليه بالصفعات تجذبه للخارج وسط صمت وسكون من جانبه و"حاملة الشعلة" تتمدد ناظرة للسقف، تغمض عينيها وتدفن رأسها أسفل وسادتها، والأم تسب الأب الذي لم يستطع سوى قذفها ناحية الحائط وهرول تاركًا بيته مقرفصًا بركن المصعد، دافنًا رأسه بين ذراعيه، ينتفض جسده. وبعد أن تلاشت غفوته وسخر منه شيطانه وشعر بالذل والانكسار، شعر بالخساره والهزيمة؛ فغفوة للحظات حطمت حياته تمامًا، خسر معها ما تبقى من حب داخل زوجته ومن عطف ابنته.. للحظات طردَ من عقله فكرة الاعتذار؛ فأي اعتذار سيصلح عذرية ابنته التي تلاشت بشيطانه!

ولكن الأمر ازداد تحطمًا وانكسارًا عندما انهالت الصرخات الآتية من الشارع بعد دوي اصطدام قوي انتفضت له السيارات وارتعشت أضواؤها وتعالت

صيحاتها، وأضيئت نوافذ البيوت، وتكاثرت النظرات لجثة الأم التي قررت إنهاء حياتها وألقت بنفسها من شرفتها لتتخلص من ألمها السحيق.

انتصر الشيطان في غفوة ودمر أسرة بأكملها نفسيًّا وجسديًّا، لم يتبقَ شيء للأب سوى الهرب والانعزال في مكان لا يعلمه أحد.. اختفى الأب وظلت "حاملة الشعلة" وحيدة بشقتها.. طفلة فاقدة لعذريتها لأم منتحرة وأب مغتصب هارب.. تتلقى العطف من كل ذي قلب حانٍ عليها، لينتهي بها المطاف مراهقة في آخر عِقدها الثاني تنوي الهرب والتخلص من بقايا ذكريات ينقبض لها قلبها، تنوي البداية وسط مجهول لا يعرفها به أحد.. تنوي أن تنسى أو تتناسى ماضيها بما فيه من ذكريات شيّبت رأسها وهي بَعد طفلة.

لم يسمع عنها أهل قريتنا سوى أنها مراهقة لأب وأم انتقلا لكنف الرب في طفولتها في حادث سير نجت هي منه بمشئية الإله، وظلت تخطو في الأرض وحيدة، شريدة إلى أن شاءت الأقدار أن تصل إلينا وتعيش وسطنا كابنة لنا. مدَّ لها الجميع يد العون

وصارت منّا، تعمل معنا، وفرنا لها الأمن والأمان اللذين بدا أنها تفتقدهما منذ أمدٍ بعيدٍ. عاد لوجهها نضرته وتفشت الدماء به، وظهرت عليها ابتسامة دُفِنَت منذ زمن طويل داخل تجاعيد وجهها التي بدأت في التلاشي مع الوقت والاستقرار.

تقدم لخطبتها ابن العلام "لطفي".. ولكنها رفضته بأدبٍ وخُلقٍ، وتمنت له الأفضل، ولم تستمر محاولته معها، وانتهى الأمر بينهما قبل أن يبدأ، واستمرت الحياة وهي وحيدة، لا صديق فيها سوى بعض الاستقرار القادم كضيفٍ عزيزٍ لا تتمنى رحيله مجددًا.

طِبقًا لاعتراف حاملة الشعلة؛ بأنها في الليلة الحادية والعشرين لقدومها القرية، غلبها النوم، وإن كان ليس نومًا بالمعنى المتعارف عليه، بل كان أشبه بموتٍ.. برحلة تقودها روحُها، رأت نفسها نائمة، ساقطة أرضًا في غرفتها مغشيًا عليها، شاعرة بانعدام الجاذبية من تحتها، وسرعات الرياح حولها، غير قادرة على التحكم بقدمها التي تُغرس بالأرض بدون أن تصطدم بها.. كانت كالطيف تتحرك، علمَتْ أنها ماتت، ومشيت



تبحث عن ضوئها الأبيض للعبور الذي سرعان ما ظهر لها فأعمى عينيها، ورأت في نهايته أمها تنظر لها باسمة ضاحكة، ولكن حدقتيها أبتا النظر لها؛ لعظمة مَن بجانبها؛ حيث كان يشبه للصور كثيرًا، يشع النور من وجهه، نورٌ يطمئِن لا يُعمي.. شعرَتْ بوخزة في قلبها الموشك على القفز من صدرها.. تقدَّم إليها ببطءٍ، وأمها منساقة خلفه بمساعدة وراحة.

وقال لها بكلمات محددة:

- اذهبي للمكان المهجور فهناك خاتمي..

تقدمت قربه، وحاولت الإمساك بيده، ولكن الرياح زادت بقوة وأخذت تطيح بيدها عنه حتى صارت تطير مبتعدة عنه، صارخة، محاولة الاقتراب منه، ولكن الألم انتهى فجأة، ولم تشعر سوى بانتفاضة جسدها البشري المادي على الأرض، واستيقظت صارخة سعيدة تريد العودة لرؤيته مجددًا، تريد أن تستشعر نفس النشوة مرة أخرى، لا تريد البقاء في دنيا الغرور والظلم.. لا تريد سوى المجد الأعظم.

***

تكمل حاملة الشعلة حديثها:

- صرت في مخيلة الليل والظلام الدامس والهدوء يخيم على المكان، لا إنسان لا بشري في أماكن تكون عامرة صباحًا وتخاطر في قلبي رهبة من مكان موحش لن تطأه قدم إنسان قرابة العقدين لتلاشيهم داخل ظلال شبح النداهة كما يدعي أهل القرية الجهلاء.

خطوة خلف خطوة وقلبي ينغمس في رؤياه، برغبة ملحّة من عقلي المستمر في ترديد كلام يسوع من حين لآخر، ورسالة بوجود خاتمه في الأرض المهجورة. كانت الجملة مبهمة كثيرًا وفضولية أكثر، وتدعو إلى البحث والتأمل في ثناياها. كانت أشبه بكلمات الكتاب المقدس في روحانيتها والبحث خلفها. يقال دائمًا إن هناك فارقًا كبيرًا بين قارئ الإنجيل بعينه وقارئ الإنجيل بقلبه، وهذه الرسالة لا تفسير لها بسبيل عقلي سوى منام وهمي بقيادة عقل باطن خرج

عن السيطرة الأرضية، ولكن التفسير القلبي وهو الأعمق لمراحل عدة يقول إن هناك خاتم يسوووع.. خاااتم يسوووووع.

اشتدت الرياح حين اقتربتُ، تسرع من خطواتي، أشعر بتحكمي فيها، تريدني أن أعود. أخذت أصارعها، أتمنى الوصول مهما كلفني الأمر.. خطواتي مضطربة، ولكنها مصرة، ليست خائفة بل متحمسة.

الساقية الملعونة أو المهجورة أو المكروهة أو المنبوذة.. قل ما لديك عنها؛ فبكل الأحوال صارت على مرمى بصري، أرى تفرعتها المخيفة الصامتة، أتخيل ما يدعى من جنيه العوالم السفلية وهي جالسة عليها ساخرة مني، أتخيلها وهي تبتلع خاتم الرب بجوفها. لوهلة لا أعلم لماذا صدقت الأساطير، ولكن ظل قلبي متعلقًا بما أهم؛ برؤياي ليسوع.

تصلبت بجانب الساقية. التفتُّ حولي باحثة عن شيءٍ مريبٍ، كل شيء موحش، هادئ، ساكن. نظرت لماء الترعة؛ الكائن الحي المتحرك الوحيد الذي استأنست

به لبعض الوقت، قبل أن أرى إضاءة تعمل للحظات وتنغلق مرتين متتالين.

لا أعلم لماذا اعتبرتها إشارة من الرب بالذهاب إلى هناك، لا أعلم لماذا استشعرت الأمان بعد تكرار شعاع النور. لا أعلم لماذا سرت أنساق إلى هناك بوعي غائب، صرت أرى يسوع في نهاية الطريق، وخلفه تكمن الجنة، صرت في اتجاه ما أمرني به جاهلةً بما سأجده.

***

صمتت حاملة الشعلة ودموعها تصارعها وبكاؤها يلح عليها، ثم داعبت خاتم يدها وأوقفت اعترافها بعض الشيء. عرضت عليها تقديم بعض الماء لتهدأ، ولكنها رفضت بشدة، وأصرَّت على الاستكمال فلم أمنعها أو أطلب منها، حتى إنني لا أعلم أكان هذا لرغبتي الجامحة في معرفة المزيد أم ماذا.. كنت أعلم أن هذا الاعتراف مكملٌ للاعترافين السابقين، الثلاثة يحكون نفس القصة، ولكن من جهات مختلفة، ومن المحتمل أن يكمن هنا سر مقتل شباب القرية خلال الأسابيع

السابقة، وأن أجد تفسير ما حدث لي؛ فبكل حالٍ من الأحوال أشعر أن حاملة الشعلة تملك الحلقة الأخيرة لكل ما حدث خلال الأسابيع السابقة، ولعلها أيضًا تملك حلًّا لمشكلتي ونمنع حادثة قتل أخرى. أعلم إن كنت على حق أنها ستكون اليوم!

انطلقت تتحدث مرة أخرى بعد أن جفت دموعها وقالت..

***

رأيتهما عاريين ملتفين حولها يهتكان عِرضها، يقبضان على جسدها ودماؤها تنساب قبل دموعها، صارخة، باكية، متألمة، ضعيفة لا تقوى على التحرك. كان أحدهم مهتزًا قليلًا لم يشاركهما رغم تعريه، كانت الشهوة تداعبه وأفكار متضاربة تصارعه، كان يقترب منها خطوة وتجبره قوى خفية على الابتعاد خطوتين.

كان يريد ولا يفعل، كان يتمنى ولا يحقق، ولكنني اشتعلت غضبًا عندما تحسسَتْ يده صدرها، ثم قبض عليها بقوة شديدة رأيت أثرها على وجهها المتألم

المذعور، ثم سحب يده فجأة وسط ضحكات الباقين، وارتدى سرواله وأخذ يجري في ظلمة الليل، ودخل مركبته وتحرك مبتعدًا عن المكان وهو لا يكف عن التألم لما بدرَ منه أو منهم جميعًا.

لم أهتم بهذا التائب كثيرًا، ولكني استكملت النظر للاثنين الباقيين وتتبعت تناوبهما عليها هذا فذاك وهي قد أوقفت صراخها وضعفت حركاتها وفقدت أملها وصارت لهما حق امتلاك، لا تقاوم، لا تتكلم، لا تبكي، لا تفعل شيئًا سوى الاستسلام، كانت كجثة هامدة باردة لهما وأصبحا هما كمرضى النيكروفيليا ينهشان جسدها الميت.

عندما اقترب أحدهما ورفع يديها وسقطت دون حركات مقاومة كثيرة وعلم بسقطوها في حالة من الإغماء، جلب الآخر سلاحه الأبيض الكبير، وجذبها من شعرها إلى أعلى لتستيقظ، أمرها بالاستغاثة بالرب.. شعرتُ أنه يسخر من الرب.

شعرت أنه استقوى نفسه على الجميع.. وحين طلبت الفتاة المساعده من أبينا..

نظر للآخر وتعالت ضحكاتهما وتطاول بلسانه النجس على الرب، وبدأ في نحر رقبتها حتى انفصلت عنها نهائيًا دون مقاومة ملموسة من جانبها. حينها ظننت أن يسوع سحب روحها حتى لا ترى ذلك العذاب منهما. ظننت أن يسوعًا جلبني حتى أكون الشاهدة الوحيدة على تلك الجريمة، ولكن دون دليل. ظننت أن كل ما رأيته لا شيء سوى خاتم يسوع الذي سأرتديه في خنصري ممتنة له طوال عمري.

ولكنني علمت بعد لحظات أنني لست الشاهدة الوحيدة مِن شهقة أحدهم سمعتها في الظلام لم يستشعرها المغتصبون، ولكنني أخذت أقترب من مكانها بأطراف أناملي، وجدت مَن يتملكه الذعر، يشاهد الاغتصاب، ومَن يستخدم هاتفه في تصوير الجريمة والبسمة والشهوة يسيطران عليه، ورأيت أمنيته الداخلية لو أتيحت له الفرصة بالمشاركة معهما، ولكن بدا لي خوفه حين رآهما يذبحانها حتى انفصلت

رأسها عن جسدها تمامًا، ثم بدآ يقذفانها لبعضهما البعض. هبطت حدقتاي منّي فجأة؛ لإجباري على النظر إلى أسفل قدمي فصارت كالحاملة بأطنان الأوزان ولمحت الشيء الذهبي اللامع البراق، انساقت يدي تجاهه وحدها وجلبته، كان مغطى بالتراب، نفضته عنه وصرت أحكّه بملابسي حتى صار مشعًا كحجرٍ كريمٍ، كان متوسط الحجم، عليه يسوع مصلوب على صليب الفداء والرحمة، كان حزينًا مضحيًا من أجلنا. شعرت بمخاطبته لنا، شعرت أننا مَن صلبناه الآن بأفعالنا، بتصرفاتنا. شعرت بحزنه على الفتاة المذبوحة. شعرت بتألمه لها. رأيت قطرات المياه تلطخ الخاتم، لا أعلم إن كانت دموعي أم دموعه أم دموع السماء، أخذت أمسحها عنه وخبأته داخل ملابسي، لم يلحظني أحد قَط، بدأت أجري كالمجنونة تجاه بيتي غير مهتمة بأي شيء.. وصرت أنا حاملة خاتم الرب يسوع.

***

- أكانت تلك أول زيارة لكِ لهذه الساقية؟!

- نعم أيها العظيم.

- ماذا قلتِ؟!

- نعم أبونا.

- حسنًا، أكملي.



- 8 -

ريتشارد

أكملَت "حاملة الخاتم" اعترافها للقس "إسحق يعقوب"، وتوقفت أنا عن القراءة على صوت صياح وشجارات انبعثت من بين ثنايا شيش نافذة الغرفة، خطوت ناحيتها ألتقط النظرات من خلف الالتواءات، حرصت على ألا أفتحه خصوصًا بعد الموقف السابق والنظرات البلهاء المخيفة تجاهي من جميعهم، ورمقت نفس العجوز مجددًا وبائع الأكفان ينهال عليه بالضرب والسباب وسط جمهور لا بأس به من الناس، وأغلبهم يكتفي بالمشاهدة فقط ولا يتدخل عدا مسلمًا هو الذي أمسك يد الساخط ذي اللحية الطويلة قبل سقوطها مجددًا على جسد العجوز النحيل، وصرخ فيه بأن يكف عن ذلك، وأن يراعي حالته الصحية، وقد تحمس القليلون للتدخل؛ فنحن دائمًا نعشق التقليد ولا نهوى الابتكار رغم أن الأمر لا يحتاج سوى لبعض الإنسانية فقط لتجبرك على أن تكف الأذى عن ذلك العجوز المشوه، ولكنهم نفضوا تلك الفكرة عن رووسهم حين

دفع بائع الأكفان العجوز، وبدأ في اتهام الشاب بالكفر والذندقة وغيرهما من الأشياء السقيمة، ولكن في اعتقادي أنه كان هناك اتهام يستحقه ذلك الشاب، أعتقد أنه كان يجب أن يلقبة بالإنسان!

سقط الشاب أرضًا، ولكنه لم يتوقف عن الدفاع عن العجوز، واندفع بكل قواه ناحية صدر بائع الأكفان ودفعه بكل قواه فسقط بجسده السمين وجلبابه الأبيض محطمًا زجاج مكتبة العرض التي يضعها على حافة حانوته، والتي أثارت حيرتي منذ أول مرة رأيتها؛ فلماذا يضع بائع أكفان مكتبةً زجاجية بها بضعة من الأكفان أمام العامة.

لاحظت شيئًا لا أعتقد أن من في الشارع لاحظوه، خصوصًا تشوقهم لرؤية المنتصر في هذا الصراع، حتى يختاروا من سيكون صاحب السباب لتلك الليلة.. هل الفتى سيكون هو الشجاع أم عدو الله؟ والبائع سيكون الإرهابي أم المدافع عن دين الله؟ ولم يلاحظ أحد أن العجوز قد انسحب من المعركة، ونسي الجميع السؤال: لماذا كان هناك شجار بينه وبين الملتحي؟!



"يا عدو الله.. يا كافر.."

قالها ذلك الملتحي وهو ينهض من كبوة سقوطه، وأزال الأكفان بعد أن تراكمت عليه ودهسها بقدمه دون أن يلاحظ، وانقض على الشاب مجددًا، ودون أن أقصد انفتحت النافذة على مصراعيها ورآني العديد وأنا أراقب الالتحام من فجوة الشقة السابعة.. القليلون نظروا لي ثم أشاحوا وجوههم عني، والبعض بمجرد أن شاهدني رحل ذليل الرأس والشاب لم يلتفت لي واهتم بصراعه، وابتسم الملتحي ناظرًا لي، وأمسك برأس الفتى مستعرضًا قواه أمامي ولكمه بيده الأخرى ليسقط الفتى أرضا لا يبارحها، ودماؤه تحيط به.

كانت الساعة الآن تقارب الحادية عشرة مساءً، ورغم مكوثي في القاهرة قرابة المئة يوم إلا إنني مازلت موقنًا أن الرب قد خلق الليل للنوم والنهار للعمل، ولكن القاهرة طالما تصر على العكس.. لا أعلم لماذا؟!.. صخبٌ لا ينتهي وصياحٌ واحتكاكات وبكاء أطفال وكل ما هو مزعج لا ينقطع أبدًا.

شعرت حينها بالنوم وقد بدأت أفقد سيطرتي على أناملي، ولم أحاول التفكير لا في المذكرات ولا كل ما حولي، فقط أردت أن أنام وأريح عقلي وجسدي من كل شيء، بدأت أشعر كأن حجمي يزداد والجاذبية تجذبني داخل جوف بئر مظلم لا ينتهي.. نوم طويل بأحلام تلاشت من عقلي فور استيقاظي.

دخلت إلى المطبخ حين استيقظت لإعداد الإفطار، ولكنني رأيت مطبخًا بورًا وثلاجة فقدت برودتها.. مر يومان على سكني بالشقة ولم أعلم أن الثلاجة لا تعمل، قررت الهبوط للشارع والإسراع في إحضار أي شيء سريعًا طالما الساعة قد تجاوزت الثانية عصرًا لا أعتقد أن مريهان ستأتي بالطعام كأمس؛ فهي كقطعة الشطرنج في يد أمها، وأعلم أن عقل أمها قد قرر اليوم أن يمنحني وقتًا للتفكير قبل التقدم لزواجها؛ فبأي حالٍ من الأحوال يجب أن أهبط إلى الشارع والعودة سريعًا لاستكمال القراءة. أخذت أهبط درجات سلم السبعة طوابق إلى عامة البشر وأنا افكر بأحوالهم، وفي كل ما حدث منذ خطوتي الأولى هنا؛ من حب



غير مفهوم، لثقيل الكلام، وعداء مع مجموعة من الزناة، وصاحب لحية يستعرض أمامي قواه، وعجوز لا ينطق سوى بالخرافات، وأخيرًا أم تريدني عريسًا لابنتها.

الساعة وصلت الثانية والنصف ظهرًا ومازلت لا أعلم ماذا أشتري وممن. استمررت في التجوال في أزقة المنطقة وشوارعها إلى أن سمعت مكبر الصوت الخاص بالمسجد قد فُعِّل، نظرت لساعتي متعجبًا؛ فأنا أعلم مواعيد صلاتهم، والعصر مازال أمامه ساعة أخرى، ولكني وجدت شيخ المسجد يقول بنبرة باكية:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. يا أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك راضية مَرضية، وادخلي في عبادي وادخلي جنتي.. صدق الله العظيم.. يا أهالي الحي الأحباء.. يوم حداد وشؤم علينا؛ فلقد أراد الله ولا مريد سواه.. لقد توفى إلى رحمه الله تعالى، الحاج محمود عطا الله بائع أكفاننا وساتر عوراتنا ومغسل أمواتنا وموصلنا إلى دور نهايتنا.. والجنازة غدًا بمشيئة الرحمن بعد صلاة الظهر.

صدمة ضربت رأسي وأنا أستمع للكلمات، أتذكر أنني قد سبق وسمعتها رويدًا رويدًا. أرى الصورة مشوشة أمامي، ولكني أعلم أني عشت هذا المشهد من خلال خاطرة حدثتني قائلة إنني قد تأثرت بالاعتراف لدرجة جعلتني أقترب من الجنون، وأخرى كانت لها السيادة حين تذكرت ما كنت أحلم به طوال الليل السابق.. نعم.. لم أتذكر الحلم بعد لحظات من نهوضي ولكني أتذكره الآن.

كنت أنا هنا.. ليلًا.. نعم ليلًا لم يكن نهارًا.. كانت تلك البقعة بلا حياة، بلا إنسان.. على جانبي البيوت كانت موحشة.. مهجورة.. نعم أتذكره حين كان يتحرك ناحيتي بذقنه الكئيبة وجسده الملطخ بالدماء وعصاه في يده ورأس الشاب الذي تدخل أمس لحماية العجوز بين يديه..

وضعها أمامي وركع على ركبتيه ونظر لي وقال فرحًا:

- إنها لك..

وجدت نفسي آخذ حجرًا ضخمًا وأنهال على رأسه، وهو يضحك سعيدًا فيشتد غضبي وأقتله بقوة أكثر وأحطم جمجمته ببشاعة أكثر وأكثر.. تتعالى ضحكاته وأنا أسحقه أسفلي حتى صمتَ فجأة وارتعش جسده تحتي قبل أن يتخشب في صورة أخيرًا لا حركة بعدها، وحينها نظرت للحجر في يدي وألقيت به بعيدًا غير مصدقٍ ما فعلته الآن..

لقد قتلته..

أنا قاتل..

أخذت أجري في الشوارع دون وجهة أعرفها، وبدأت الحياة تدب في المكان والشمس تظهر في كبد السماء والأناس من حولي ينظرون للجثة تارة ولي تارة أخرى، قبل أن يركع كلٌّ منهم على ركبتيه ويبكي طالبًا مني الرحمة..

انتفضت كالمصعوك حينما تعمد مينا ضربي في كتفي بقوة ليعود بي من ذكرى كابوس أمس وينظر لي

والشرر يطق من عينيه، وأصحابه الآخرون على القهوة منتظرين لحظة عداء واحدة مني للتدخل لأنال نصيبي من الأذية من كل واحدٍ منهم، ولكنني أشحت برأسي عنهم جميعًا وخطوت عائدًا إلى البيت.

حينما وصلت وجدت مريهان واقفة أمام شقتي وملامح الارتباك في عينيها وقالت:

- كنت خايفة تتخانق معاهم.

و لكنني لم أهتم كثيرًا لحديثها الرومانسي الذي بالتأكيد هو من نسج أمها، وسألتها على ما هو أهم الآن:

- مريهان، الشقة دي كانت لمين قبلي؟!

في البداية تعجبَتْ من انقلاب الحديث بهذه الصورة المحبطة لها، ولكنها أسرعت في التخلص من ارتيابها وأجابت:

- بيقولوا زوجة خاينة انتحرت لما جوزها كشفها مع حد تاني.. وفيه بيقولوا هو اللي قتلها لأنه مختفي من يوم الحادثة دي.. وبنتهم الصغيرة من مدة طويلة سابت البيت ومشيت.

هذا كان بيت "حاملة الخاتم" وأهلها، وواضح أن أهل المنطقة جميعًا يجهلون الحقيقة فلم يكفِهم عذاب الأم وجرحها بل إنهم برأوا المذنب وخاضوا في شرف الضحية.

يبقى سؤال: كيف رحلت "حاملة الخاتم" منذ زمن بعيد الأمد والاعتراف ينم على حدوث كل شيء من سنتين فقط؟!

كيف وصلت هذه الأوراق إلى هنا؟!

- بياع الأكفان مات!

- آه سمعت! كنت سامع إنه مريض، بالقلب أظن.

- ما اظنش إنه مات بسبب قلبه!



- اومال؟!

- لسه مش متأكد.. مش عارف!

طال صمتي مفكرًا أمام مريهان وهي تنتظر مني دعوتها للدخول أو تفسير أكثر وضوحًا للأمر، ولكنني الآن كنت لا أرى سوى استكمال الاعتراف؛ فالآن صرت نسخة من الأب. أرى ما يراه، أعاني ما يعانيه.. قتلَ دون أن يعلم وأنا قتلتَ دون أن أفهم..

كلانا نتماثل بصورة مبهمة غير واضحة..

دخلت وأغلقت بابي في وجهها وهرولت تجاه الاعتراف. صرت أقرأ ليس للتطلع كما كنت..

صرت أقرأ ليس للمقال..

ولكني صرت أقرأ لأفهم..

أقرأ لأستوعب..

أقرأ ..

مَن كان يومًا عظيمًا متميزًا!

أخشى أن يكون هو من تخلص من عظمته أو لعنته وصارت بداخلي أنا الآن..

ولا أعتقد أنني سألقى حاملة خاتم يسوع هنا لتشرح لي الأمر..

- 9 -

مذكرات إسحق يعقوب

- أكانت تلك أول زيارة لكِ لهذه الساقية؟!

- نعم أيها العظيم.

- ماذا قلتِ؟!

- نعم أبونا.

- حسنًا، أكملي.

عندما عدت إلى البيت كنت لا أفكر في شيء سوى: لماذا ساقني يسوع إلى هذا المكان؟ هل لأجد خاتمه كما قال حرفيًا، أم كالكتاب المقدس كلامه يحمل في ثناياه العديد من الخفايا؟ هل كان متعمدًا أن أرى حادث الاغتصاب، أم كان من قبيل الصدفة أن أرى ما رأيته، وهل تم الآن فتح بابٍ أمامي كانت القرية قد أغلقته من عشرات الأعوام، عن حوادث تم تأييدها ضد مجهول أو ضد النداهة.. كم تمنيت أن أراك



مجددًا ربي وتلحق بعقلي المتواضع القليل من الفهم.. أخرجت الخاتم من ملابسي ونظرت له بتعمق، كان أوضح مما رأيته في الظلام، كان يسوع كما قلت سابقًا مصلوبًا حزينًا داخل دائرة نُقِشَ عليها بعض العلامات التي لم أستطع تفسيرها، قرَّبته من فمي وبدأت في تقبيله، ثم ارتسمت الصليب على جسدي، وبدأت في الصلاة له .

***

قاطعتها لأول مرة متعجبًا، وقلت:

- الصلاة للخاتم؟!

صاحت فيَّ بعنفٍ:

- نعم، أصلّي للخاتم.. إنه هدية الرب لي.. أنا حاملة خاتمه العظيم.

توقفت عن الحديث مقررًا بداخلي عدم التكلم مجددًا؛ حتى لا أثير غضبها. تعلمت كثيرًا من المرة الأولى ألا أسأل؛ فلسثُ جِمل هروب معترفٍ آخر مني.. بدأت في

احتواء خيوط القصة بأكملها، ولكنني بحاجة لمسايرة حاملة الشعلة للنهاية.

مر الوقت وهدأت حدتها، وعادت تتحدث بتلقائية بنبرتها المنكسرة. شعرت بداخلها بنوعٍ من الانفصام، شعرت بشخصٍ آخر أعنف، أقوى، أشرس، يعيش بداخلها كبركان خامل لا أهوى إثارته الآن.. وأكملَتْ اعترافها.

***

شكرت الرب على هديته لي، وتوسلت له أن يزورني مجددًا، أريد أن أفهم أكثر وأكثر.. هل كان من قبيل الصدفة أن أرى ما رأيت؟

تحركت تجاه ركن الغرفة الذي أسميته مطبخًا، كانت غرفتي تصلح لتلقَّب بأي اسم، ولكن كان أفضلهم وأكثرهم قربًا من حقيقتها، أنها كانت دورة مياه مشتركة.



احتواء خيوط القصة بأكملها، ولكنني بحاجة لمسايرة حاملة الشعلة للنهاية.

مر الوقت وهدأت حدتها، وعادت تتحدث بتلقائية بنبرتها المنكسرة. شعرت بداخلها بنوعٍ من الانفصام، شعرت بشخصٍ آخر أعنف، أقوى، أشرس، يعيش بداخلها كبركان خامل لا أهوى إثارته الآن.. وأكملَتْ اعترافها.

***

شكرت الرب على هديته لي، وتوسلت له أن يزورني مجددًا، أريد أن أفهم أكثر وأكثر.. هل كان من قبيل الصدفة أن أرى ما رأيت؟

تحركت تجاه ركن الغرفة الذي أسميته مطبخًا، كانت غرفتي تصلح لتلقَّب بأي اسم، ولكن كان أفضلهم وأكثرهم قربًا من حقيقتها، أنها كانت دورة مياه مشتركة.

أخرجت رغيفًا قد تعفّن وأزلت اخضراره، وبدأت في التهامه بدون تذوق، أنظر يميني ويساري أستشعر تحركات من حولي أسترق النظرات لا أجد أحدًا، أستكمل التهامي لعشائي اللذيذ، إلى أن ظهرت أمامي أمي، بوجهها المشع الملائكي، وابتسامتها الناضرة وشبابها وجمالها وأنثوتها وقالت:

- يسوع أرسل لكِ هدية أخرى على طاولتك.

ويجب أن تنامي حتى تتلقي رسالتك الثانية..

يجب أن تنفّذي ما تأمرين به..

استمعي له ولا تعصيه؛ فالنعيم الأبدي بانتظارك.

ملكوتك الأبدي ينتظرك يا عزيزتي..

سنبقى سويًا هناك إلى الأبد..

تلهفت لسؤالها عما شاهدته في الملكوت وما مشاعرها هناك، ولكنها أجابت بابتسامة فهمت معناها أن ليس



في مقدورنا العِلم الآن، ومن الأمانة ألا تخبرني بذلك حتى ألحق بها في القريب كما وعدتني هي.

اختفت أمي والتفتّ خلفي وكانت الطاولة قد تعبأت بالطعام الشهي، تصلبَت حدقتاي على الدجاج المشوي في المنتصف، وتحركت ناحيتها كمصاص دماء يشتهي فريسة براحة وهدوء، افترست الطعام كأسدٍ يسحق غزالًا بين سيوف أنيابه.

ولا أعلم متى غفوت مجددًا، فقط أعلم أنني رأيته يبتسم لي ويتحدث معي بوجهه البشير الأبيض المشع، وهمس كالعادة بكلماته المحددة:

"اذهبي إلى المهجور مرة أخرى، وهناك سترين علامة تطهيرك، واحرصي على ألا يفارق خنصرك الخاتم".. صمتَ قبل أن يردف بتحذير شديد اللهجة تتقطع بارتعاش صورته أمامي.. "إياكِ أن تفقدي هذا الخاتم"..

استيقظت وقد مر منذ آخر ذكرى لي أمام الطعام الفاخر قرابة الخمس عشرة ساعة، لا أعلم كيف نِمت كل هذه المدة فلا تفسير لدي، ولكنني نمت تعمقت بالنوم. جسدي كان يأبى النهوض غير معترفٍ بهذا القدر من النوم، كانت أغلب ظنوني حينها أن الرحلة إلى يسوع تتخذ وقتًا طويلًا، ولم أشغل بالي كثيرًا ونهضت أبحث عن طعامي الشهي؛ فلم أجد منه شيئًا سوى رغيفي العفن، التهمته ولا أستشعر اختلاف طعمه عن الطعام الآخر؛ فقد فقدَ لساني قدرته على التذوق أو أن طعام يسوع منحني قدرة الاستطعام الجيد الشهي لأي شيءٍ أكله.

أنهيت طعامي ونظرت إلى السماء وهمست شاكرة الرب:

- شكرًا يسوع.. شكرًا ربي.

كان الصداع يسيطر عليّ حينها، تضرب رأسي كجمرة من لهب الجحيم، أتمنى أن يلمسني الرب حتى أبرأ من آلامي، ولكن دون أي جدوى رقدت أسفل سريري

أبحث عن عملة معدنية ساقطة، ووضعتها على جبهتي وربطتها على رأسي؛ وصفة عطفت عليّ الأيام بها.

***

صمتت كأنها تتذكر باقي الأحداث وكل لحظة تمر عليّ لا أشعر سوى بالشفقة على الفتاة.. تلك الفتاة آتية للاعتراف ولا أجد في كلامها ما يدعو لذلك الاعتراف. أعلم أنها قادمة فقط للحكي، للإفصاح عما بداخلها. رمقتها تداعب خاتمها -أو خاتم يسوع كما تلقبه-..

كلامها عن رؤى يسوع وخلافه كان ليكذِّبه أغلب البشر؛ لرفضهم لفكرة تجسُّد الإله لبشري، ولكنني لا أعلم لماذا صدقتها منذ البداية.. أو رغبت عنوة أن أصدقها بصورة ذلك الملاك الذي تتبعته طوال الأسابيع. لن أجعلها تتهاوي سريعًا وأتهمها بالجنون منذ أول وهلة.

ما الذي يمنع الرب من تجسُّده لبشري؟

لماذا نظن أنفسنا نفهم الإله أكثر من نفسه؟



نفهم تصرفاته..

نستنكر أشياء ونرحب بأشياء..

لمَ نرى أنفسنا بهذا القدر من الحقارة التي تمنع الرب من زيارتنا، رغم أنه يعظِّمنا ويمجِّدنا دائمًا ويرانا أفضل ما خلق؟!

اعذرني قارئ كلماتي ومذكراتي، كل ما أردت قوله هو أنني أصدِّقها..

أصدِّق تلك الفتاة في رؤيتها..

صدقت يا ربي..

صدقت يا يسوع..

ربت على كتفها برفق، وأطلقت العنان لابتسامتي، وحرَّكت رأسها لتنظر في عينيّ وقُلت لها:

- أصدقك.. أكملي.. ماذا وجدتِ في زياراتك الثانية للساقية المهجورة؟!

انطلقت تكمل ما بدأت..

***

كنت أجري أستبق الوقت، أريد الوصول للساقية بكل سرعتي. لم أكن أعلم ما سأشاهده هذه المرة، كنت أخشى أن يجبرني على مشاهدة اغتصاب آخر، كنت أحسب أن دوري هذه المرة هو التدخل.. إنقاذها.. التضحية في سبيلها.. كنت أظن يسوع يريدني في المجد الأعظم، ولكنه فقط يريد مني إثبات استحقاقي لذلك.

كنت أجري، أحاول اللحاق برأسها قبل أن تنفصل عن جسدها.. كنت كالمجنونة.. كالمذعورة.. كانت القرية هادئة..

كانت الأمطار تكثر ليلًا..

كان الظلام موحشًا، مميتًا..

ولكنني لم أكن أهتم..

فالخوف مرض قد هزمته منذ لحظه المهاد..

وصلت الساقية، ودخلت العشة، لم أجد بها أحدًا، كانت مظلمة، تعجبت كثيرًا ولم أفهم شيئًا.. استنكرت بداخلي خبايا رؤى يسوع، استنكرت لماذا دائمًا يحاولي إثارة حيرتي في فهمي للأمور من حولي..

اختلست النظرات لا أجد شيئًا.. إلى أن..

***

صمتت حاملة الشعلة وأنا على وهج نار تلهب مقعدي..

- تكلمي.. ماذا رأيتِ؟!

تجاهلتُ رعشة جسدها وسيطر عليّ فضولي، وأمرتها بالاستكمال مجددًا:

- أكملي.. أكمِلي أرجوكِ

لحظات وأكملت..

***

كانت عيدان القمح على مرمي البصر تتحرك بقوة في اتجاهي، انتابني قليلٌ من الخوف أجبرني على الاختفاء قليلًا.. علمت حينها أن يسوع يريدني مجددًا أن أراقب حدثًا مهمًّا سيحدث هنا:

كنت أراقب العيدان في انتظار ما سيخرج، ولكن قلبي كاد أن ينفجر حين قال أحدهم من خلفي:

- من أنتِ؟! وماذا تفعلين هنا في ذلك الوقت المتأخر؟!

نظرت له كثيرًا وشفتاي تأبيان الرد عليه، ولكنني شعرت بالدم يتدفق في عروقي بقوة شديدة عندما تذكرته..

نعم نعم..

لقد كان سائق "التوك توك" الهارب من جريمة الاغتصاب.. هذا من سحقَ تدييها بين أطراف أنامله الخاطية.. ذلك مثال للحية الصغيرة الواجب وأدها في مهدها..

توفقت على قدميّ في ثبات وتقدمت ناحيته بشراسة تطق في عينيّ..

لقد رأيتكم..

رأيت كل شي..

حقًا أنت لم تغتصبها..

ولكنك أيضًا لم تنقذها..

في البداية لم يكن يصدق ما يسمعه مني وتمنى أن أكون قاصدة شيئًا آخر، ولكن لحظات وبدأ يتأكد من صدق كلامي في ملامحي الجادة.. ثم صفعني على وجهي بقوة طيرت معها أحد ضروسي، سقطت أرضًا أتألم كثيرًا وهو يجري مبتعدًا عني صارخًا:

"أنا لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا.. لم أفعـل.."

لم يكمل الثالثة حتى تعثرت قدماه بأحد الأغصان وسقط في الترعة يقاوم الغرق بصعوبة. سمعت صرخاته وأنّاته تختلط داخل عقلي بأنّات وصرخات



الفتاة المغتصبة.. نسيت آلامي ووقفت على قدمي أنظر له وهو يغرق، يتوسل إليّ أن أنقذه، عقلي يسعى لإقناع قلبي بهذا التوسل، ولكن قلبي انتصر وتركته يغرق، تركته حتى دُفِسَ داخل المياه بلا عودة.. تركته ليفتح للقرية مجالًا لجدالٍ كان قد دُفِنَ منذ أعوام مع شبح النداهة الذي عاد اليوم للانتقام.

هنا فقط فهمت رؤى يسوع..

يسوع أرادني أن أكون أنا النداهة..

أرادني أن أكون المنتقِمة للمغتصبة..

رأيت الإشارة وفهمتها..

يريدني أن أنفذ حكم الإعدام في الباقيين

فالرب عقدَ محكمته الخاصة في السماء وأصدر حكمه الإلهي..

قال كُن.. وحقًا بسواعدي سيكون..

يريد من النداهة حاملة خاتمه، تحقيق العدالة..

قلبتُ الخاتم، وبعد أن تبلل بأدمعي، وهمست بجسد المسيح المعلَّق على الصليب، فهمت..

فهمت ربي..

أمرك مطاع..

النداهة ستعود ..

ستقتلهم جميعًا..

ستفتك بأرواحهم..

ستحطم عظامهم..

ستهتك عوراتهم..

أتقرب إليك بالبحث خلف العدالة السماوية..

لا تطِل بي الأيام هنا بعد الانتهاء من تنفيذ أمرك، أصلني بالمجد الأعظم..

أصلني بالمجد الأعظم..

قبل رحيلي رمقت المياه بعد أن سكن اضطرابها، وتوقفت تشنجات السائق الغريق، ورحت في سكون، وتحركت بخطوات ثابتة هادئة إلى بيتي.. أو غرفتي بمعنى أدق.

***

توقفت حاملة الشعلة ترمق أثر حديثها على وجهي الذي بذلت مجهودًا كبيرًا في محاولة –بائسة- للسيطرة عليه، كنت مذهولًا من حديثها أنها هي النداهة، هي من كانت تقتل الشباب خلال الأسابيع القليلة الماضية.. هي من أحيَت لعنة أسطورية قديمة في قريتنا.. هي من أثارت الذعر والرعب في نفوس الجميع هنا.. ولكن كل هذا لم يكن يترك شيئًا بداخلي مقارنةُ برسائل يسوع لها.. يسوع يأمر فتاة بالقصاص لأخرى تم قتلها واغتصابها.. هذا الكلام غير منطقي، ولكن تناقضي صفعني بقوة، وخرج صوتي الداخلي ليعبّر عن مكنوناته ويسخر مني بجملة وحيدة سارعت

بقولها: "من أنا لتقييم أعمال الرب".. ثم عبر الصوت عن جملة سمعتها جيدًا ..

"أنت تصدق حاملة الشعلة.. يسوع من أمرها بالقتل.."

عادتي أنني لست بمتسرع في تصرفاتي، ولكنني أخرجت مسجلي الصغير الخاص ثم ضغطت زر التسجيل؛ فقد اعتقدت أن الأحاديث القادمة لحاملة الشعلة تستحق تسجيلها.. وهنا فقط علمت أنني أخطو بداخل لعبة ضميرية بحتة، سيلعب بها دوري الديني أمام الجانب الإنساني؛ فمنهما من سيريد الإبلاغ عن حاملة الشعلة، والآخر سيريد التكتم على جرائمها.. وهنا شعر قلبي بالذنب تجاه نفسي حين لقبت أوامر يسوع بالجرائم.. حين اتهم عقلي الرب بأنه أمرَ بالقتل.

وضعت يديها على جبهتها واعتصرت شفتيها، كان الألم ظاهرًا بغلظة على ملامحها، حاولت تجنبها وشرعَت في الإكمال..

***

ليلتها، عندما عدت للبيت لم أكن أفكر في شيء سوى نشوى فائقة تتملكني، تخيم عليّ، تتحكم بي، كانت فكرة أن يسوع يخاطبي في حد ذاتها تجعل قلبي ينتفض فرحًا ورقصًا، ورهبةً أيضًا من أوامره القادمة؛ فقد كنت أرتقب جميع أوامره القادمة وأنا على علم أن القادم سيكون أكثر صعوبة.. حينها لم أرَه في منامي، فقط كانت الزيارة لأمي التي لم تقل سوى كلمات قليلة ورحلت..

"الإشارة لدى معترف الأب إسحق يعقوب.. وفي كلماته سترين التطهير.. ومنتصف ليلة العهد قبل ساعات الام ستقومين بالتحقيق".

حينها كنت لا أفهم، ولكنني كنت أمتلك شكوكًا.. ولكن كانت أغلب حيرتي بمَن أبدأ، يسوع أمات أحدهم رغم عدم مشاركته في الاغتصاب؛ إذًا أشعر أنني سأنتقم مِن جميع مَن شارك في هذه الجريمة، ولكن عاودني شعور عدم استباق الأحداث، فارتديت ملابسي وتحركت تجاه الكنيسة لتلقي الإشارة من عندك ايها الأب.



كنت أعلم أنك تراقبني، كنت تهتم لأمري، كنت أستشعر في نظراتك فضولك تجاهي، كنت أتمنى التحدث بما في داخلي لأحد، ولكنني لم أكن أعلم هل مباح لي الحديث أم لا.. كنت حينها تجلس أنت مع الشاب الأميّ، كان يعترف لك في صلابة وثبات، تستمع له بإنصات واهتمام أقل مما يبدو عليك الآن، رمقته وظللت أحمل شعلتي أمام صورة العذراء منتظرة انتهاءه من الاعتراف، أرمقه من لحظة لأخرى، أجدك تنظر لي، ينتابني القليل من الذعر من نظراتك، ثم يتحول عقلي لهدفي الأسمى والأكبر.

تحسست أذني حينها إحدى كلماته حين قلت أنت له:

"إن أحدهم يستحق الحرق."

خرج من الكنيسة وكنت خلفه أتحرك، لا أعلم كيف سأنفِّذ الأمر، كيف سأقتله، كيف سأقتص للفتاة المغتصبة، أتحرك بينما ترتعش يداي ويتلهف قلبي لشهقة موته. لم أكن أقوى على الانتظار، كان يسير في

الأرض دون مغزى، مضطربة خطاه، لا يعلم إلى أين هو ذاهب، كان لأول مرة لا يتحرك كما يتحرك يوميًا.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، وبعد أن عمَّ السكون في الأرجاء والأمي يسير مترنحًا ودخان سيجارته يلتف حوله مقيدًا إياه، مللت المشي وأرهقني الوجع وقد انتصف الليل، كان لابد من التقدم، لم أكن أعلم ما هي خطوتي التالية، فقط اقتربت منه، وما إن وضعت يدي على كتفه حتى انطلق دوي صراخه يعج في الأرجاء، ركع أمامي:

- من أنتِ؟ من أنتِ..؟!

بهدوء أرهقني اصطناعه قُلت:

- أنا النداهة.. يا من اغتصبتها بسلبيتك..

ما إن سمع كلمة اغتصاب حتى ارتعش جسده وانتفض مرددًا:

- لم أغتصبها.. أقسم إنني لم أفعل هذا قَط.

صفعته على وجهه بقوة؛ فانساب خيطٌ من الدماء من جانب شفتيه.

ولكنك..

رمقت..

فنظرت..

فتعمقت..

كان الشيطان قد أقنعك أن بتصوير الحادثة ستجلب حقها، ثم كانت سلبيتك هي الطريق لهلاكك..

هرس شفتيه بين أسنانه وانقبضت يداه ونهض ينظر لي بغضب:

- يسوع سامَحني!

أخبرني أبونا أن الرب غفر لي..

أخرجت سكينتي وأمسكتها جيدًا وقُلت:

-كاذب..

أبونا لم يفعل ..

أبونا أرادك أن تُقتَل..

تُحرَق..

تراجع للخلف خطوتين، وأجاب مدافعًا:

- ليس أنا..

- بل كان يقصد..

يقصد لطفي..

و لم يكمل كلماته قبل أن يدفعني بقوة لأسقط أرضًا، وأخذ يجري في الشوراع مذعورًا، ولكن المريب أنه لم يقص ذلك الأمر على أحد؛ فقد كان بإمكانه إخبار الشرطة أو الأهالي بأنني أنوي قتل لطفي، ولكنه التزم الصمت..

لماذا؟



فأنا حقًّا لا أعلم..

الهدف تغيَّر وصار من "الأمي" لـ "صاحب العلام" انتقالة كبيرة كنقلة بين الأرض والسماء العليا، صار هدفي من الغبي الأحمق لابن العلام الذكي، اختبار يسوع يزداد صعوبة كلما انتهيت من مرحلة.

شكرته على أنه جعلني أستمع للأمي دون أن تأخذني الجلالة والحماسة وأقتله قبل أن أفهم منه فأكون قد فشلت في الاختبار وأكون بذلك أول سكان الجحيم.

أنا كالملاك قابض الأرواح الذي يعلم أنه لابد من أن ينجح، أعلم أن الله سيمنح لي السبل حتى أصل إلى مايريد، فلا سبيل للفشل، ولكن أحدهم هربَ مني، والآخر لا أعلم كيف أقتله.. أنا بدون خطط ولن أذهب للرب وأقول له إنني فشلت.

جلست تلك الليلة وحدي كالعادة مع صديقي الودود رغيفي المتعفن.. أفكر كيف يكون القصاص الثاني..

جالت في عقلي خاطرة ما..

طالما أرادني كزوجة..

إذًا هو اشتهاني..

مع أول ضوء شمس أعلم أنه سيتحرك مغادرًا القرية لعمله، ولكنني سبقته على محطة القطار، وحاولت أن أثير انتباهه؛ فعدل من ملابسه واقترب مني قائلًا:

- كيف حالك؟!

- بخير ..

- أليس...؟!

قاطعته:

- أريدك أن تزورني الليلة في بيتي.. أو غرفتي بمعنى أدق..

- ماذا؟!

- احرص على ألا يعلم أحدٌ بذلك الأمر.. لا تتأخر حتى لا يفوتك ما أعده لك.

تركته ورحلت ليستوعب صدمته وحده في يوم سينسى به ما تعلمه ذات يوم، ولن يفكر سوى في مفاجأتي التي أعددتها له اليوم.. أما أنا فكان واجب عليّ مغادرة المدينة بمسافة ليست طويلة لأشتري أحد أنواع الحبوب المنومة.

احتفظ عقلي بجزء صغير من الذكاء، تفكيري في شراء مثل تلك الحبوب من صيدلية القرية كفيل بزرع الشك ناحيتي.

خصوصًا حين يسمعون بالضحية الثانية للنداهة الملعونة..

الساعات تمر رويدًا رويدًا..

حين وصل لطفي غرفتي وطرق بابي، كنت في أشهى لحظات أنوثتي التي فقدتها منذ ليلة مولدي، فتحت له، رمقني ولكنه حاول الإشاحة بنظره، ولكنني أجبرته على أن ينظر لي..

فالعين تزني..



أريد أن أزيد من ميزان خطاياه..

- أيعلم أحد أنك هنا؟!

كان الارتباك باديًا عليه بوضوح، أرى في عينيه صراعه الداخلي أسمع صوت أحاديثه بينه وبين قلبه وعقله..

من يريد البقاء ومن يريد الرحيل..

توجهت تجاه ركن الغرفة وأحضرت له الشاي بعد أن وضعت خلسة ثلاث حبات من المنوم بكوبه، وتقدمت ناحيته، كنت حريصة على أن يظهر أكبر جزء من صدري، كنت حريصة جدًّا على أن أجعل الغلبة لقلبه وأن أخدر عقله نهائيًّا هذا اليوم.

مد يده وأخذه دون أن يتفوه بأي كلمة، باقٍ لأنه يريد أن يبقى لا يعلم ماذا ينتهي به هذا اليوم لا يريد التسرع في الحكم، ولكنه أيضًا يتمنى أن تصل الأحداث إلى ذروتها؛ فعيناه تأكلانني.. أعلم تلك النظرة؛ فلم تكن المرة الأولى التي أراها فيها..

ولكنني تمنيت أن أكون أنفِّذ حالًا ما أمرني به الرب لأقضي...

الأمر لم يتطلب أكثر من نصف ساعة تقريبًا، كان شاقٌ عليّ جدًّا أن أشغله طوال هذه الفترة؛ فكان عقله يستفيق أحيانًا ويطلب الرحيل. وضعت يدي على صدره أتحسسه وهمست:

- لماذا ينبض قلبك بهذه السرعة؟!

ظل صامتًا وحدقتاه تكادان تفران من مقلتيه..

جذبت يده ووضعتها على صدري وقلت:

- أنا أيضًا قلبي ينبض بسرعة كبيرة.. لا تخف أنت في أمانٍ معي.

كنت على حق ولكن الأسباب كانت تختلف؛ فهو كان سعيدًا بقرب أول علاقة جنسيه له معي وأنا سعيدة بقرب تنفيذ أول طلبات الرب بعد دقائق.



غاب عن الوعي بعد دقائق من المداعبات واللمسات غير الشرعية التي أتمنى من الرب أن يسامحني عليها، ولكنني متأكدة أنه سيفعل.

فلقد كانت ضرورية لتنفيذ الأمر..

لا أعلم لماذا كنت دائمًا أصر على أن يتم القصاص بنفس الأرض المهجورة رغم أنني لم أتلقَّ أمرًا بذلك، ولكن شيئًا داخلي يصر على أن يُقتلوا جميعًا في نفس المنطقة التي عذبوا وذبحوا بها الفتاة، ولكن حمل ذلك الشيء سيكون من المستحيل.

تركته بغرفتي وخرجت ليلًا بعد أن تكفنت داخل عباءتي، الشوارع فارغة، الجميع قد نام، كنت سعيدة؛ لذلك نظرت للسماء ولوحت بيدي للرب لكي يراني؛ فلن يرهق اليوم؛ فلا بشر في الشوراع؛ فالجميع قد نام..

قدمي قادتني إلى بيت "الأميّ" لا أعلم لماذا؟

طرقت بابه..



فتح لي هو الباب..

أريدك الآن ..

أومأ برأسه إيجابًا..

- أظنك تعلم مكان غرفتي.. لا تتأخر..

***

- كيف؟!

- عن أي شيء تتحدث أبونا؟!

- كيف لم تخشي أن يراك أحدٌ تتحركين ليلًا هكذا؟!

- لا، الله معي..

- وكيف لم يرَكِ أحدٌ ..

- لأن الله معي كما قلت لك..

- لم أرَ أحدًا يملك مثل أيمانك..

- لأنك لم ترَ حاملًا لخاتم يسوع، قبلي!

***

فتحت باب غرفتي حين طرقه "الأمي" وأمرته بالدخول، إلى الآن لا أفهم لمَ لَم يبلغ الشرطة عني رغم علمه بالأمر، وأيضًا لا أفهم كيف لم أخشَه قَط، ولكن يمكنك أن تقول إنني رأيت فيه قلب الرب، ورأيت فيه أنه سيتفهم ما سيعجز الجميع عن تفهمه حتى أنت أيها الأب.

- أريدك أن تحمله للأرض المهجورة حالًا وترحل ولا تعود مجددًا وإياك أن تخبر أحدًا بشيء..

كان كالمخدَّر لا يستفسر..

لا يسأل..

أو كان لا يهتم أن يعلم..

أو لا يريد أن يعلم..

في الحقيقة، ليس لدي فكرة عن تصرفاته الغريبة تلك، ولكن في النهاية ظل ساترًا لي عن تصرفاتي وحمله وألقاه على وجهه على الأرض المهجورة، ونشكر الله أن لم يرَنا أحد ونحن نحمل لطفي.

أتعلم أيها الأب، ذات يوم قالت لي صديقة تدعى فاطمة إن الله عند حسن ظن عبده به.

عبارة يرددها المسلمون دائمًا، ولا أتصور أن هناك أحدًا يفهم معناها مثلي..

ومرة أخرى قالت "إن كان الله معنا فمن يملك القدرة على أن يكون ضدنا؟!"

يرددون العبارات دون فهم..

أنا أفهم تلك العبارات..

أنا رأيت تلك العبارات

أنا الوحيدة بهذا الكون بعد الرسل والأنبياء التي يحق لها قول تلك الجمل؛ لأنني رأيت الدلائل عليها وليس



هم ..

رحل "الأمي" وتركني وحدي مع لطفي كما طلبت منه وظللت حائرة ماذا أفعل بهذا الإنسان وصار هو ملكًا لي، في البدايه قررت أن أوقظه؛ فمن حقه أن يرى جزاء ما فعله.

- الرب يريد روحك الآن..

كان مذهولًا من كلماتي، ولم يكن في كامل وعيه وتستطيع القول بأن لحظة التنفيذ، الجانب الإنساني يكون على أوج اشتعاله، لم أستحمل كثيرًا رؤية خوفه؛ لذلك حين بدأ في قول إحدى الكلمات لم أدعه يكملها وقد جحظت عيناه وارتعشت حدقتاه.. لم يكمل حديثه إلا و كان نصل سكيني يخترق صدره.. استشعرت الموت يطوف حولنا.. تلحف وجهي نيران الجحيم وهي تستقبل زائرها الجديد.. ابتسمت لوظيفتي الجديدة كعزرائيل -كما يلقبه المسلمون-.. تتحول لضحكة بأنني صرت أحمل صفة من صفات الرب وأنهي حياة البشر الموكلة بإنهائها.. تزداد



ضحكاتي وأرى روحه تفارق جسده في ضعفٍ ويأسٍ.. أركله بقدمي فيسقط على ظهره ينظر للسماء وأرمق دمعة تفارق عينيه..

لم أكن أعلم ما عليّ فعله الآن بجثته، ذلك المقيت، نظرت إلى السماء أستدعي انتباه الرب، لي ولكنه تجاهلني، كنت لا أعلم أأرحل وينتهي الأمر أم ماذا؟ خُفت ألا أنفَّذ أوامر كاملة فلا يراني كفؤًا للنعيم؛ لذا أخذت أبحث في هديته فقربتها ناحية فمي وهمست بها متسائلة:

- ماذا أفعل؟!

تصلبت في مكاني انظر للسماء وأنا اري مشاهد بعض الذكريات تتوالي أمامي كالفيلم المصور بكاميرا مرتعشه أخذت اتلقي الرسائل واحده تلو الأخرى والاخص حين عاد للحظه طلب فيها قلبك أن يتم القضاء على الكافر بالنار ويسوع قبلك امرني أن استمع لما لديك لذلك الأمر الآن صار واضحا ولكن لا يمنع أن يكون لي اضافه ..



ابتسمت وشكرت خاتمي على رسالته وغبت عن إدراكي ووعيي بروح حية تتحرك، لا أعلم كيف صلبته وعقدت أطرافه بساق الشجرة الصلعاء.. أشعلت به النيران وأخذت أشتمّ رائحة شوائه قبل أن أختفي ليلا في ظلمات الليل المشرق بنيران المصلوب وبوابته الأولى لجحيمه الأبدي..

***

رأيت ابتسامة حاملة الشعلة وهي ناظرة خلفي كأنها تتأمل منظر حريق لطفي وصحت بها:

- أحرقتِه!

ابتسمت مجددًا ورفعت كتفيها:

- كانت أوامر الرب.. أنا أنفِّذ فقط.

كنت مستنكرًا كلامها عن الرب..

- ياالله، كيف تمكّن الشيطان من إقناعكِ أن أبشع الخطايا هي الفضيلة الأسمى!

حقيقة، كنت أصدقها في بداية المطاف، أما الآن فلا أراها تختلف كثيرًا عن إنسانة متطرفة حمقاء تتبع الوهم..

الرب الذي طالما عاشرته بالأب السلام والسماح يأمرها بالحرق والصَّلب.

- أبونا، كيف لا تؤمن بالخاتم؟!.. انظر هذا خاتم الرب، هذا خاتم يسوع.

- بل خاتم الشيطان!

- أنا المختارة!

- بل أنتِ الملعونة!

تعالى صوت روحي بداخلي منبهًا لي بكيفية تحديد أوامر الرب واستنكار بعضها، صمتُّ.. أفكر في الرب وأوامره، أتحسر على أنني ظللت سنوات تلو سنوات أفهمه بصورة خاطئة.

الرب ليس سلامًا طوال الوقت هناك أوقات يغضب..

أو أوقات الرب.. عذرًا كلمات قلبي رفض قلمي كتابتها..

اعلم يا قارئ مذكراتي أن الكلمات أحيانًا تبدو متناقضة لأن ذلك يعبّر عن حالتي في ذلك الوقت..

كانت الفتاة مصدومة من انفعالي؛ فحاولت جمع شتات الأمور وأردفت قائلًا:

- أكملي يا حاملة الشعلة..

أو حاملة الخاتم!

أو ..

فقط أكملي اعترافك..

***

عندما عدت إلى البيت كانت القرية على أهبها تتجه إلى المكان المحترق، تكاد عيونهم تقفز من محاجرها.. ينظروا لما تبقى من الشاب المحترق.. يرون النار



فيتعالى همسهم ويزداد صياحهم.. ينطق جهلهم ويعبِّر عن شبح النداهة السخيف، ينطق عقلهم بقاتل هبَّ على القرية يقتل خيرة شبابها، ينطق قلبهم بانتقام يسوعي قادم من السماء منتزعًا شرور الأرض..

كانت الطاولة لا تحتوي على شيء سوى مجرد رغيف من العيش المتعفن؛ وجبتي الأساسية التي اعتادت عليها معدتي فأصبح اصطدامها بطعام ناضج يعرضها للتسمم.

أغمضت عيني وجلبته وبدأت في تناوله.. كان طعامًا يشبه اللحم النضر.. للمرة الثانية لساني يخونني في الاستطعام وآكل ما لا أرى.. ظللت مغمضة العينين آكل ما لا أراه إلى أن غلبني إرهاق جسدي وغرقت في بحر النوم أطوف حول العالم بأسره، حتى وصلت لبيتِ لحم، وهناك رأيتهما مجددًا..

اجعلي من خبايا الطبيعة جنودًا.. فهم أوفياء وعارضون الولاء، وللتوازن يسعون.

***



تجاهلت كلمات يسوع وسألتها بدون أن أستحسن الكلمات..

- وكيف كان قصاصك من الباقين؟

***

عندما أمرني يسوع بالقصاص من عناصر الدنيا، كنت لا أعلم ماذا يقصد، ولكني كنت دائمًا متأكدًا أن الكون له نقطه بداية، ولكن من أين لي أن أعلم بتلك النقطة؟ فنحن دائمًا نجهل ما لدينا ونبحث عمّا لا نملكه. الأول مات بالماء، والثاني بالنار، وهناك ثالث ورابع.

بعد بحثٍ استمرَّ ليومين، علمت أن الاثنين الباقين لابد أن تنتهي حياتاهما، أحدهما بالهواء، والآخر بالتراب. كان قد حان وقت يسوع لأن يتدخل يمنحني إشارة ليفهمني الأمر.

كنت حائرة..

و لكن مَن أحببته، كالعادة كان مرشدني؛ حين نبهني أنه يريد أن يكون المنتقم هذه المرة هو الرياح..



أريده ساكن قبر من الرياح..

و لكن هذه المرة تركني قليلًا أفكر في الطريقة، لم يمنحني الفكرة كاملة كأنه ينسحب شيئًا فشيئًا من الأمر، يريد أن يراني أنتقم وحدي، يريد أن يرى هل تعلمتُ أم لا..

الشرطة انتشرت في المكان لأول مرة منذ زمن طويل، جنود متعرقة مرتجفة من أحاديث الأهالي عن الأشباح وخلافه، وآخرون أكثر نضجًا يبحثون عن سفاح، وكثير من السذج الباحثين في خلافات العائلات لإيجاد السائرين نحو الثأر .

تم التحقيق مع الجميع تقريبًا، خلافي..

أو بمعنى آخر لم يتذكرني أحد في القرية..

أليس ذلك غريبًا أيها الأب..

يبحثون عني في الجميع، ولم يقترب أحدٌ من الفاعل الحقيقي..!



***

- أتعتبرينه نوعًا من الإهانة؟!

- على العكس.. إنها العناية الإلهية.. "يرعاك الرب" ترددها أنت كثيرًا ولكنني أشك أنك تفهم معناها.. أتفهم معنى أن يرعاني الرب؟ لو كانوا قد حققوا معي كان بإمكانك الإيقاع بي داخل سجونهم.

كنت صامتًا لا أتكلم لعجزي عن إيجاد الردود، ولكن لم تتوقف، واستمرت في الحديث:

- أتعلم قصة هجرة محمد التي يرددها المسلمون؛ حين غادر من أمام أعين من أرادوا قتله ولم يروه.. قد يكون الإسلام ليس من الرب ولكنه يهدف للرب.. أعتقد أن هذا الرسول حتى إن صنع هو رسالة كاملة للقضاء على الظلم والرِّق والاستعباد في الأرض ونجح...

قاطعتها:

- أتقصدين؟!



ردت سريعًا:

- أنا لا أقصد شيئًا.. فقط أحاول ربط كل شيء ببعضه.. أبحث في التاريخ عمن كانوا مثلي ذات يوم، وأرتجف حين أشك في أحدهم!

- أظنني أفهم تقريبًا ما ترمين إليه.. ولكن مع ذلك، ابنتي!، لا يوجد مبرر لنحر الرقاب.

- أخشى أنك مخطئٌ!

***

كالعادة، أسبق الجميع بخطوات عدة؛ فهم إلى الآن لم يفهموا أن القصاص يتم في آخر ساعات الخميس -ليلة عهدي للرب- فهم كانوا يعلمون أن جمعة "الأميّ" لن تكون الأخيرة، ولكنهم يجهلون تمامًا خطتي.. كانوا كالباحثين عن قاتل متسلسل دون أي خيطٍ يمشون وراءه.

حتى إن فكروا في القبض على جميع أهل القرية كانوا سينسونني بكل تأكيد.



كانت ليلة باردة ما أروعها لتفيذ أوامر الرب، كنت كالعذراء لو امتلكت فرصة لسحق يهوذا خائن ابن رحمها.. عيون المخبرين هنا وهناك تحتضنهم لفحة البرد وجفونهم تتثاقل تدريجيًّا، تنشقّ السماء بالبرق، ويعلن الرعد عن بداية رحلة المطر إلى الأرض. كنت وحدي أتحرك بين الجنود، لا يرونني، أعماهم يسوع عني، أسمِعت ذات مرة عن كلمات القرآن حين مرّ رسول المسلمين بين مَن أرادوا قتله ولم يروه؟!

شعرت أنني مثله في تلك اللحظة..

شعرت أن الله أوجَد الزمن حتى يعاد دائمًا.. دائمًا نلوم أنفسنا على تكرارنا لأخطاء التاريخ بنفس الأسلوب والطريقة رغم عزمنا على ألا يتكرر ذلك.. هل للرب حكمة من أن يرينا عجز أنفسنا وتكرار أخطائنا مرة تلو مرة دون أن نتعلم منها؟! هل في الأصل مقدَّر لنا أن نغيِّر حياتنا ونصير الأفضل؛ فكلما تقدمنا تقدمت معنا خطايانا وصارت أبشع، وكأن العلاقة دائمًا تظل طردية رغم أنه من المقنع أن تنقلب، ولكن أشعر أن واقعنا وما

نريده ليس دائمًا هو ما يريده الرب لنا.. وبالطبع الرب له الكلمة العليا هنا!

فكرت أن أفعل مثل حامل النبوءة الإسلامية وأضع التراب على رووسهم، ولكنني تذكرت أنهم لا يريدون قتلي، إنهم يريدون الظن في أنفسهم بأنهم يحققون العدالة، قوم يعشقون الحديث ولا يحققون النجاح سوى بالصدفة ويبرزون عجزهم بكثر تباهيهم بنجاح لا يد لهم فيه، صنعوا الخرافات ليتحركوا خلفها حتى لا يرهقون أنفسهم بالبحث عن القاتل؛ فجعلوا منه إلهًا على الأرض أسموه النداهة أو الجن أو الشيطان أو خلافه.

ذات ليلة في صغري، فكرت أن الرب قد حدثنا يوم الملكوت، وسألنا أن لو لم يكن هناك الشرير معنا على الأرض أو، لم يكن شيء مادي كما نظنه نحن، وأنه في الأصل مجرد حالة معنوية، أو جزء من أنفسنا. كيف ستكون رؤيتنا لأنفسنا في تلك الحالة؟

سنكون أغبياء..

المشهد غير المستحدث وله سابقة تاريخية يقدسها المسلمون؛ فنحن ننكر الدين الإسلامي كدين سماوي وإذا كان الأمر كذلك؛ فأرى أن شخصية محمد تستحق أن تكون أعظم شخصية في التاريخ. شخص بارع، تمكَّن من صنع ديانة جديدة تخلصهم من الرق والظلم والاستعباد، وتمكن من نشرها في عدة بلاد ليكون ذات يوم من أسياد العالم، ومازلوا لم يفقدوا الأمل للعودة مجددًا لذلك.. هل الرب حقًّا يمقت الرسول لأنه صنع ديانة؟ أم يعشقه لأنه دعا إليه في وقت لم يعرفوا فيه المسيحية، وقرر أن هناك خالقًا وحده بل وبدأ يخاطب البشر أجمعين لعبادته. في النهاية، قد أمرنا يسوع بأن نحب أعداءنا، والمسلمون ليسوا أعداءنا..

أو الكثير منهم إن شئنا الدقة؛ فهناك أقلية منهم أعداء أنفسهم قبل الآخرين..

قد يكون القرآن ليس بكلمات الرب، ولكن ما مانع أن الرب أحبها! وقرر أن ينسبها لنفسه، ألم ينهر موسى ذات يوم حين وبخ أحدهم لا يجيد الصلاة بالصورة الحق، وعاد موسى ليعتذر له ليتعبد إلى الله كيفما

يريد. الله لم يضع شكلًا ثابتًا لعبادته؛ فما المانع من أن نتخذ المسلمين طريقة للتقرب من الخالق فهو في النهاية واحد .

صُلِب المسيح أم لم يُصلَب.. هل هذا سببٌ كافٍ لتكفير إحدى الطائفتين رغم أن الاثنتين تؤمنان بالمسيح.. غريب أن يعتقد المسلمون بل أن يترسخ في عقولهم أن المسيح سيعود مرة أخرى للأرض لتوحيدنا معًا وجعلنا قوة لم تخلق من قبل وبعضنا لا يؤمن بذلك..

أتمنى أن يعود المسيح إلى الأرض ذات يوم..

أتمنى..!

وأتعجب أن منا من يؤكد أن هذا لن يحدث أبدًا

أستنكر من يتكلم بلسان الرب ويملي عليه ما يحق له أن يفعل..

هل الرب غير قادر على رؤيتنا هنا الآن؟!

الشرطة أحاطت المنطقة المهجورة بأكملها بسياج من الورق، ومنعت أي إنسان من أن يتقرب منه بحكمة مضحكة، وذلك يبرز جيدًا مدى عدم فهمهم لحقيقة الأمر، وأن لا أحد في الأصل كان يقترب من هذا المكان وذلك ما سبَّب جريمة الاغتصاب منذ أول وهلة؛ فلو كان الأمر بيدي لكنت أصدرت قرارًا يفرض على جميع أهل القرية المرور من تلك المنطقة يوميًّا بصورة إجبارية، ولكن من يفهم ذلك..!

لا يهم..

إننا قوم لم نعرف النجاح إلا صدفة..

حسين وهو الضحية القادمة لي..

فهمت أن الرب يقتص من الجميع، وأننا سواء عنده؛ فلا أفضلية لأحد بما يتبع؛ فالعدل قائم واشتمل على المسيحي والملحد والآن المسلم.

قبره الهواء



على بُعد أمتار رأيت بيته.. من زمن تساءلت لمَ يهبط نور الله على البيوت التي يرضى هو عنها، ولا نرى السواد يلوّن ما يغضبه؟ وبذلك يكون قد ضرب لنا المثل الأعظم في التسامح وأتاح لنا الفرصة في التعديل من أنفسنا. ولا أعتقد أنه سيولد في هذا العالم من يلحد،ولكنني تراجعت عن ظنوني حينما شعرت أن الملعون قادر على تبديل الحقائق والأمور، وسيجعلنا نتصارع حتى تصل بيوتنا جميعًا للسواد؛ فهو لون الوقار كما يقولون.

ولكنني استشعرت حقًّا أن بيت الفتى غاضبٌ.. لا تسألني كيف ولكن كان حقًّا كذلك، كأنه يسخط لما فيه من شيطان آثم يستحق الموت، ولكن آن الآوان أن يتحرك الشيطان ويرسل جنوده لمحاربتي. رأيت أمام الباب جمعًا هائلًا من القطط السوداء ينظرون لي في سخطٍ، يتعالى مواؤهم كلما اقتربت خطوة ناحيتهم أو ناحية البيت. يتربصون بي منتظرين إذن عزازيل للانقضاض عليّ وسحقي، ولكنه عار عليّ أن أخاف

منهم وهم في ظل قيادة الشيطان، وأنا قائدي هو خالق الشيطان نفسه .

ظللت أتقدم دون خوف.. أو بادعاء أنني لست خائفة.. لن أجعل الشيطان يراني خائفة منه، أنا هنا لتنفيذ ما أمر به الرب مهما كلف الأمر، وحتى إن قتلوني، يكفيني شرف الموت في سبيل تحقيق مراد الله. أتقدم والقطط تنظر لي. أرى نفسي بجسد دامٍ في عيونهم اللامعة البراقة. تغزر الأمطار بقوة تضرب الأرض كرصاصات تصرعهم. رأيتهم ينظرون لأنفسهم وقد انتصبت شعيراتهم وأخذوا يهربون من الأمطار.. من رصاصات الرب وقواه العظيمة.. كانوا كالفئران يختبئون.. في لحظة تحسست مواءهم الذي صار كالصرخات تعوي في القرية والجميع نيام عنهم.

تقدمت حتى صرت أسفل بيته وتوجهت بنظري ناحية شرفته أرقبها وأنا أفكر كيف سأجذبه إلى هناك لأجعله يتدلى بجسده معلقًا من رقبته؛ فالأمر كان شاقًا جدًا، ولكن -وفي لمح البصر-، وبمجرد أن شرعت في دخول البيت وصعدت أولى الدرجات، سمعت صوتًا شديد

الحدة والقوة لشيء ينكسر أتى من الخارج، هرولت أهبط ما صعدته من خطوات، ونظرت يمينًا ويسارًا، ولكني لم أجد أحدًا، وشيء ما أجبرني على النظر إلى أعلى. رأيت حسين مشنوقًا متأرجحًا، تصارعه الرياح من كافة الاتجاهات دون شفقة أو رحمة.

كان الشيطان يعلم أنني لن أخاف من جنوده، فقط أراد أن يعرقل حركتي وهو ينفِّذ خطته في إقناع حسين بالانتحار، وبذلك يكون هو المنتصر ولا يكون الرب هو من اقتص .

الشيطان كان سيقتل حسين -إن كلفه الأمر ذلك- ولا يجعله يموت على يدي باسم المسيح الحي.

بدأت أنوار البيت تضيء، وبدأت أسمع أصوات تحركات طفيفة تقدم من جميع الاتجاهات، أمسكت طرف عباءتي وأخذت أجري في الشوارع حارصة ألا يراني أحد وأنا مذهولة من موت الفتى دون تدخُّلي في الأمر .



جريت إلى أحد البيوت المعروف أنه لا أحد يسكنها واختبأت بها وأغلقت بابها من الداخل وأنا أسمع أحدهم..

لا أريد أن يهرب ذلك السفاح هذه المرة..

قلبي تتسارع ضرباته.. بعد كل ذلك مازلت إنسانة وأشعر بالخوف! هل من المعقول أنه سيتم الزج بي في السجن لشيء فعله الشيطان؟!

هل الرب سيتركني الآن ضحية للشرير؟!

وهل أنا الآن خسرت ملكوت الرب بعد أن فشلت في تنفيذ أوامر الله ؟!

مستحيل أن أترك ذلك يحدث؟!

يجب أن أقابل يسوع حالًا..

يجب أن يعلم أن هناك دخيلًا بيني وبين أوامره..

جلست القرفصاء مستندة إلى الجدران، والشرطة في الخارج ترفع من صوت سياراتها، وأتنصت للإسعاف التي بدأت في القدوم، وعدة أوامر يتلقاها الناس من صاحب الصوت الأجش..

"لا أحد يقترب من المكان.. الليلة سيكون قاتل القرية في قبضة يدنا!"

و لكنه يعتقد أن القاتل واحدٌ، ويجهل أنهم مختلفون، هل سيقبض على القتلى لأنهم من قتلوا الفتاة في البداية؟ أم عليّ لأنني أشعلت في جسد أحدهم النيران.. أم على الشيطان الذي ألقى بحسين من شرفته ليكون في مهب الرياح.. أم سيقبض على يسوع لأنه أغرق التائب.. سخيف!

ولكن كل ذلك لم يكن مثل صدمة أحدهم وهو يقول:

"أعتقد أنه مازال على قيد الحياة.."

شعرت أن الرب تكلم أخيرًا، وأعلن أن الشيطان لن ينتصر بعد. الرب منحني فرصة جديدة للانتصار على

إبليس والفوز بالملكوت، ولكن هذه المرة يجب أن أسبق الجميع .

***

- حزنتِ أم فرحتِ بأنه مازال على قيد الحياة؟

- شعور متضارب، أكره وجوده على قيد الحياة، ولذلك صعقت وكرهت الأمر، وفي نفس الوقت مقتّ سرقة أحدهم قصاصي، ولهذا فرحت أن يسوع منحني فرصة جديدة لإكمال ما بدأت.. كما اعتقدت أنه مات بالفعل ولكن يسوع أعاد إليه الروح حتى أقتله أنا.

- لماذا لا يقبض يسوع أرواحهم وينتهي الأمر؟

لم تجِب حاملة الخاتم، ولكنها استكملت اعترافها..

***

كنت أحاول استنتاج ما يجري في الخارج من كلمات الشاهدين، فهمت منهم أنهم أنزلوا حسين وأسرعت الإسعاف في نقله، ورغم أنه لم يمت بعد أن شنق

نفسه -لحسن حظه- إلا أن عقله تأثر وحالته حرجة جدًّا لقلة الأكسجين بداخله. ما قام به كان غبيًّا؛ فهو لم يلعب على كسر عنقه بل على خنقه.. وذلك دعَّم في عقلي فكرة أن يكون حسين هو من انتحر بدافع وسوسة إبليس له.

لو كنت أنا من نفَّذ الأمر كنت سأشتاق بعد أن أقتله مسمومًا أو مطعونًا أو أي شيء.. هناك فرق بين قتل في سبيل الرب، وبين قتل بهدف القتل، والمحاربة ضد الرب .

***

"أهناك قتل بهدف القتل؟!.. كيف؟!"

"بالتأكيد.. هناك أيها الأب.. كما أن هناك من يستمع لاعترافات البشر إرضاءً لنفسه، وكثيرًا ما ينسى خالقه"

***

كنت أعلم أنني سأسير ساعات وساعات حتى أصل للمستشفى، وقبل أن تسأل أيها الأب، تعب قدمي في



سبيل إرضاء الرب راحةٌ بالنسبة لي. بدأت رحلتي فجرًا، وهجمت الشمس عليّ حين أشرقت وكأنها استنكرت تحرُّكي تحتها، واستكبرت أن تتركني وحدي دون أن تلقي عليّ بضرباتها التي أرقدتني في فراشي ثلاثة أيام بعدها.. ولكن لا يهم .

دخول المستشفى كان أيسر مما أتصور؛ فهناك كنت غير قادرة على التمييز بين طبيب ومريض وزائر، مستشفى مكتظة بالناس وصرخات الأطفال،

لا أطباء تقريبًا سوى اثنين، ولا ممرضون سوى أربعة. حوائط ملطخة بقطرات الدماء وطرقات ممتلئة بالأسِرَّة الصدئة، تحمل مرضى في أعمار مختلفة.

إزعاج يقتل من فيه الرمق للشفاء، وعجائز مجعدو البشرة، وأطفال اكتسحهم المرض. كنت أتنقل بحُرية دون مضايقة من أحدٍ، من غرفة لغرفة باحثة عن هدفي حتى في نهاية البهو، وجدت ما يسمى بالانـــعاش! وهنا تكمن سخرية القدر؛ حين ترى اللوحة بها قطع بين اتصال النون بالعين..



إن.. عاش.. جميل أن نكون حريصين على عدم (تعشيم) المريض بالحياة وأن نكون صرحاء بإخباره أن الموت يحوم حوله ويستعد لأي خطأ ليتصيده..

فتحت الغرفة رويدًا، كنت أسمع من صغري أن تلك الغرف لابد لها من تعقيم وخلافه، ولكني هل هذا ينطبق على غرفة إنعاش دون مقبض وبابها غير محكم الغلق.. وما إن تطلعت بحدقتي للداخل، حتى وجدت عددًا من المرضى على الأرض مرتدين على رؤوسهم أقنعة التنفس، وطبيبًا واحدًا فقط يتابعهم جميعًا كأنه حارسهم الليلي ضد أنياب الموت المتربصة بهم.

نظر لي الطبيب وقال:

- أتريدين رؤية أحد؟!

ظللت أفكر في إجابة أقولها، ولكن عون يسوع كان تكفل بالأمر؛ حين صرخ بي الطبيب وهو ينتفض تجاه أحد المرضى في ركن الغرفة ويضربه على صدره إثر

صافرة ألقاها أحد الأجهزة الرديئة بالغرفة، وأيضًا ملحوظة: إن الأجهزة أقل من عدد المرضى بكثير..

- افعلي مثلي هكذا حتى أحضر جهاز الصعقات من غرفة نسيب نائب المجلس.

هرولت تجاه الفتى والموت يداعبه، وبدأت في فعل نفس الضربات التي كان يفعلها الطبيب قبل أن يرحل ليأتي بجهاز الصعقات من غرفة نسيب نائب المجلس -كما قال-، ولم أكن متعجبة من أن تكون غرفة الانعاش لا تحتوي على ذلك الشيء أو أن يكون قد تم نقله إلى غرفة من هو ذو أهمية وله معارف مهمون؛ فهذا ليس غريبًا على بلدي؛ أن تقدر قيمة حياة الإنسان بمعارفه. فدمُّنا هو الأرخص دائمًا، ونصطنع التعجب حين نجد من يخونها أو يتوق للرحيل عنها، ولا نسأل ماذا بها يجعلنا نبقى حتى الآن.. لا أعلم..

مرت عشر دقائق دون أن يأتي الطبيب مجددًا وأنا أضرب على صدر الفتى منقطع النبض، كنت أعلم أن الفتى قد مات دون شك، وشككت أيضًا أن الطبيب

وجد حالة في طريقه فنسي هذه، وأفكار الانتقام والقصاص بدأت تسطو على خلايا عقلي لإكمال ما جاء بي إلى هنا.

ابتعدت عن جسد الفتى ودعوت الرب أن يُحسن استقباله؛ فهو ضحية جديدة وليست أخيرة لإهمال أبناء بلدي. هرولت أبحث في وجوه الجميع عن هدفي، كان أحدهم وجهه مغطى، سحبته سريعًا لأرى جثة قد نسوها في غرفة الإنعاش دون نقلها أو حتى دفنها؛ فمازال هذا المكان يبهرني مع كل دقيقة أقضيها فيه. ولو شاء الرب لحامل خاتمه من بعدي، أتمنى أن يكون القصاص ممن له يد في كل هذا..

وصلت في النهاية إلى حسين، كان يرقد على سرير مع طفل آخر يرتدي قناع تنفس أعتقد أن الطبيب يبادله بينهما من حين لآخر، كان يرقد في عالم آخر لا يعي ما حوله، رحمة يسوع جعلته لا يموت إلا على سرير ناعم دافئ، نظرت للطفل الملقى بجواره وأخذت القناع من على فم حسين ووضعته على الطفل، ثم سحبت حسين أرضًا فأنا لست مثل الرب، وطالما ترك الأمر لي



فليتركني أقوم بتنفيذه كيفما أشاء.. فالرب فوقنا وليس معنا على الأرض، أنا فقط من يشعر بالمعاناة التي رأتها تلك الفتاة، ولكن عقاب هذا يجب أن يكون مضاعفًا؛ لأنه ترك نفسه للشيطان وقرر إنهاء حياته في لحظة حتى لا يجعل النصر لي .

نظرت حولي أبحث عن شيء يصلح لقتله بالرياح -كما قال الرب-، ولكنني لم أجد شيئًا، حتى إنني لم أجد غرفة لأشنقه بها، ولكن وجدت حقنة معدنية شديدة الضخامة ملقاة على الأرض، جريت نحوها وأمسكتها أتحسس صدأها وبرودة معدنها، وابتسامة تطفو على وجهي كلما تبلورت في رأسي فكرة العقاب. وجدت نفسي أجذب طرفها المتحرك كأني أعبئها بالهواء وأنا أتحرك ناحية حسين. جلست بركبتي على صدره والنشوة تغمرني وثقبت رقبته بها وأخذت أبتسم بالأخص حين فتح عينيه ونظر لي في رعبٍ بعد أن فهم أنني أتطلع لنهايته الآن. بدأت في بث الهواء داخله بمنتهى البطء والاستمتاع بألمه، والرعب يفيض

من مقلتيه، قلبه يلاحق الأمر بسرعة، الانقباضات والانبساطات.

لم يجد الوقت ليصرخ، وحتى إن صرخ فلا منجي اليوم من تحت يدي، إلى أن أنهيت جرعة الهواء -وهي وحدة تكوين الرياح- بداخله، وشعرت معها أن قلبه يهدأ تدريجيًا وينفصل عن عالمنا رويدًا رويدًا. مشيت حتى باب الغرفة، ثم نظرت مرة أخرى لحشود المرضى في أسى، وتمنيت لو أبث بهم جميعًا نفس الحقنة حتى أريحهم من آلامهم، ولكنني مازلت لست ملك نفسي، ويبقى للرب إرادة ومشيئة فيما يريد؛ لذلك التزمت بدوري وتركت الغرفة ومشيت، إلى أن خرجت من الغرفة ولم يرَني أحد، نظرت ناحية الطبيب ورأيته يهرول بين الغرف باحثًا عن جهاز الصعقات ولا يجده حتى الآن. رأيت نفسي أضحك بسخرية وأنا أغادر المشفى عائدة إلى القرية وبالأخص بيتي؛ فقد آن الأوان أن أكافئ نفسي بنومة هنيئة لبضع ساعات لبدء المرحلة الأخيرة والأصعب ولكنني انتهيت منها منذ ساعات قليلة ويسوع يصر عليّ أن أنهي مهمتي هنا

بين يديك.. حاولت إقناعه بأنك لن تتفهم الأمر، ولكنه أصرَّ وأخبرني أن هناك من يرانا.. هناك من يسمعنا.. هناك من سيصدقني.. هناك من سيكمل مسيرتي.. هناك ثالث بيننا أيها الأب.. غائب عن عيوننا ولكنه حاضرٌ دومًا..



- 10 -

ريتشارد

كيف يكون هناك من يؤمن بهذا القَدْر؟!

كيف يوصلنا حبنا إلى الرب لدرجة القتل وسفك الدماء غير البريئة في سبيله؟!

وكيف نرفض مشيئته؟!

ومن نحن ليكن لنا رأي في حكمه؟!

نحن كخراف لدى الإله أو ربما أقل، يفعل بنا ما يشاء..

لحظات وأنا في حالة من الصدمة قدمي تحملني إلى الباب للرد على الطارق المزعج واستخدامه غير الآدمي للجرس السخيف، وعقلي مازال في القرية، يرفض العودة لعالمي.

فتحت الباب، كان محمود ينظر لي وهو يبتسم وبدأت معاناته في رسم النغمات بلسانه، وأنا أنتظر بقدر قليل

من الاهتمام.

- لاازم تخلللص قبل الخميييييس..

أنتهي من ماذا أيها المخبول؟!

ذلك جوابي الذي لم أستطع مصارحته به، واكتفيت بتكرار سؤاله في العلن دون الحاجة لإهانته.

فأجابني:

- مممش كللل حااجة نقدر نقووولها..

- ليه؟!

- لأااانك مكنتش هتصدددق..

كنا في الساعات الأخيرة من يوم الثلاثاء، ولكن صدِّق أو لا تصدق، أعلم أن كل الاعترافات ومحمود ومينا وكريم ومريهان والعجوز وبائع الأكفان وأنا..

الكل مترابط!



رحل محمود وهرولت إلى الاعترافات لإكمالها..

لإنهاء ما تبقى منها، يجب أن أفهم كل شيء..

فالنهاية اقتربت..

لكنها بدأت تخيفني..

لأول مرة أشعر بمثل هذا الخوف..

أشفقت على الأب إسحق يعقوب لأنه عاش ما عشته بالضبط، وإن صدقَ حديث حاملة الخاتم بأن هناك آخرين قبلنا كانوا كذلك؛ فالإشفاق سيمتد للكثير من الجذور والأسلاف السابقة..

- 11 -

مذكرات إسحق يعقوب

سنوات وأنا على يقين بأن الاعتراف يطهِّر القلب ويزيل الخطايا ويقربنا من أبينا الذي في السماوات، متضرعين له، شاكرين نعمه وأفضاله، ولكن حاملة الخاتم قلبت الأمر بداخلي في وهلة؛ حين أشعرتني أن الله ليس دائمًا إلهًا متسامحًا؛ فاحيانًا قد يأمرنا بالقتل!، أحيانًا كنت أسخر ممن يتبع دينًا ينتشر بالسيف ويدعو أنه دين سلام، وهنا رأيت أن سفك الدماء لم يكن خطيئة لدى الذي لم يكتسبها وحده وإنما هناك من زرعها بداخله.

رغم كون عقلي يرفض كل ما يقال منها، إلا إنه أقرَّ بحقيقة قد ظنها يومًا كذبًا..

إن كل الفلسفات التي وضعناها في وصف الرب وصفاته كانت على خطأ..

" هكذا يبقى المجرم الأخير.. كيف قتلتِه؟!"



خرج مني السؤال قبل أن أفكر فيه جيدًا، اتهام مثل تلك الفتاة بأنها ترتكب جرائم أو تقتل دون وجه حق أو حتى إشعارها بكون ما تفعله غير كامل الصحة كفيلٌ بأن يزيد من قائمتها فرد آخر بتهمة الإلحاد وإنكار أوامر الرب..

قلبي لا ينكر أن إعدام هؤلاء هو تقرُّب إلى الله؛ فهم أبناء الشيطان وواجب قتالهم، ولكنني همست بداخلي أن الله ذات يوم ترك الشيطان رغم عصيانه له بل ومنحه حياة أبدية ليضرب لنا مثالًا عظيمًا في السماح.. كان منطقًا أحمق لا أفهم كيف كنت مقتنعًا به في هذا الوقت، وسمعت ضحكات عقلي وهو يهمس:

"الله لم يترك الشيطان سوى ليعذبنا."

حاول قلبي الرد ولكنني أمرته بالصمت، واكتفيت ببعض النظرات لوجه الفتاة الغاضب مني بعد أن وصفتها بالقاتلة دون قصد، ولكن انقباض عضلات خديها هدأ تدريجيًّا، وحاولت الابتسام، ولكنها فشلت فاصطنعت إحداها كالمرغمة على إكمال الحديث بروحٍ

طيبة.. كنت أشعر أنني كالمتقدم لخطبة عروس تعشق آخر.. وكانت لهجتها دفاعية حادة..

- أنا لست قاتلة.

ثم تحولت لنوع من الثقة أو الغرور.. لا يهم؛ فالفارق بينهما دائمًا شعرة، والقليل منا فقط من يتمكن في التفريق بينهما، وقالت:

"أنا خادمة الرب"

كان لابد لي -إذا أردت أن تكمل حديثها-، أن أتراجع لحظتها وأن أراقب كلماتي؛ فغضبها في تلك اللحظة سيجعلني كالظمآن بعد رشفة ماء لا تغني من عطش.

"نعم.. خانني اللفظ.. أعتذر."

صمتُّ أفكر في قلب دفَّة الحديث ومنحها الدَفعة لاستكمال اعترافها أو قصتها.

- وهل أتاكِ يسوع مجددًا؟!

أجابت باستهزاء وكأنني سألت سؤالًا أحمق:

- وهل دخول الملكوت سيكون هكذا؟!

أتلقى الأوامر وأنفذها!

الرب لا يحب ذلك

يحب الإبداع في التقرب منه "

بالتأكيد إنه وقت عقلي ليصرخ سائلًا عن أي إله تتحدث تلك الفتاة، إله قاتل! أو محرض على القتل -إن دق التعبير-..

فهو قادر على القضاء على الجميع في لحظة.. لماذا يسلم الأمر لتلك الفتاة حتى تقتص هي!

لكنني انجذبت لقلبي قليلًا، حين قررت الاستماع؛ فاستشعار الصدق فنٌّ لا يتقنه العقل ..

- حقًا أشعر أنني لم أفهم الرب قَط من قبل..

- أكملي.. أكملي حاملة الخاتم.

وأكمل قلبي سرًّا: "أكملي يا حاملة خاتم الرب".

- كان لابد أن يتركني هذه المرة أعتمد على نفسي.. وأثبت له أنني جديرة بالملكوت.

- و هذا يعني...

قبل أن أكمل الجملة ردت هي:

- يعني أن يسوع قد أرشدني ثلاث مرات.. والرابعة والأهم لي..

بكل حرص أحاول ألا أغضبها:

- إذًا الجرائــ.. م.. إحم.. أقصد القصاص الأخير كان من تدبيرك..

أومأت برأسها بالإيجاب..

- حسنًا.. أكملي قصتكِ..

فبدأت تكمل..

***

كان الأخير هو الأصعب والأذكى.. الأقوى.. وصاحب الطابق السفلي من نيران الإله.. هو الهدف الأهم منذ اللحظة الأولى . هو من استحلَّ الدماء البريئة.. كان يهوذا العصر، خائن القرية، ضد المسيح لهذا الزمان..

كنت أشعر برغبه داخلية تنبع مني في قتله، ذبحه، تقطيعه إربًا إربًا، شعرت برغبتي في أن أجعله طعامًا للكلاب، ولكن ما ذنب تلك المخلوقات الوفية لتأكل لحمه المسموم.. فجنهم خُلقت لتأكل لحمه.

انتشر رجال المأمور بالقرية بعد أن تجاهلنا الجميع وتذكرنا الإعلام في اللحظة الذي اعتقدوا فيه أننا سنكون مصدر إعلاناتهم وأرباحهم هذا الشهر، وقدم الصحفين من كل حدب وصوب، كل منهم باحث فينا عن سبقه الصحفي.. كنا كالبلياتشو على مسرح العرض والجميع ينتظر إزهاق روح أخرى وحبذا إن كانت على الهواء مباشرة؛ فنحن قوم نعشق الانجذاب نحو مصائب غيرنا.. رغم علاقتي الطويلة بالرب إلا إنني لم

أفهم لمَ خلقَنَا بهذا الفضول؟!.. لمَ لم نكن كالملائكة؛ جسدًا بلا عقل؟!.. فالعقل كالوحش المفترس المتربص لنا، والقليل فقط منا من تمكن من ترويضه.. ولكن السؤال الذي أيضًا أرّقني كثيرًا:

"لمَ خلقنا الرب من البداية؟!"

كان الأمر صعبًا بكل تأكيد، ولكن القاتل لم يفهم الأمر بَعد، ولم يستنتج أنه الضحية التالية لهذا الشيء؛ فذلك جعل الأمر كبصيص أمل في أحلك لحظات السواد ويسوع -رغم عدم ظهوره- إلا إنه ساعدني بعدم اكتشاف جثة الفتاة حتى الآن؛ فأهل الشهيدة ظنوا أنها ضحية أخرى للسفاح أو النداهة أو أي شيء.. ولكنها بكل تأكيد لن تعود.. وصدقَ ظنهم.

ولكنني كنت أنكسر كلما اشتممت رائحة تعاطفهم مع القتلى الآخريين ظنًا منهم أن من قتل ابنتهم، وقتل هؤلاء الشياطين شخصًا واحدًا..

كنت أشعر بالغضب بركانًا سينفجر من عقلي.



و لكنني لم أجرؤ قَط على الحديث، واتخذت من الصمت زوجًا لي في أسود أيام حياتي..

علمت أنه أعزب والعِقد الرابع له يشرف على الانتهاء..

لا زوجة..

لا حبيبة..

لا أحد..

فصديقته الوحيدة كانت الوحدة ذاتها..

أحيانًا أيها الأب، تصنع الوحدة من المرء ملاكًا..

وأحيانًا أخرى نرى الشيطان وليد الانعزال الأسود، خصوصًا وأن كان لديه رغبة جنسية لا مشبع لها..

ظللت أتتبعه يوميًا في تحركاته، لكنه تجاهلني كالجميع هنا..

كان يغادر القرية كل يوم تقريبًا، وأتوقف عن المرافقة عند حدودها، ولكنه غيَّر كثيرًا في خطط سفره منذ

إعدام الفتى السابق، صار لا يتأخر كالعادة؛ فكل يوم لا تتجاوز الساعة العاشرة سوى وهو في بيته نائمًا وأبوابه مغلقة عليه..

دخول بيته غير آمن؛ فعيون القرية على مصراعيها ترصد أي شيء غريب..

وأيضًا الأمر ليس قتلًا فقط.. ولكن يسوع يريد قتلًا بأسلوبٍ محدد..

الأول غرق في المياه..

والثاني احترق في النار..

والثالث طُعِنَ بالهواء..

يومًا ما سمعت أحدهم يقول: "إن عالمنا قام على أربعة أشياء: هواء، نار، ماء، وتراب."

يسوع أراد أن يقتل بالتراب!.. يسوع أراد أن تكون الطبيعة هي الوسيلة لتحقيق العدل.. الطبيعة التي يجب دائمًا أن تحافظ على توازنها.. الطبيعة التي

عاشت قبل الإنسان في تجانس واضح لم يعكره سوانا منذ لحظة تهشُّم رأس هابيل على تلك الأرض..

مازلت أيضًا لا أفهم..

ولن أسأله، أريد أن أريه أنني أفهم، وأنني أستحق الملكوت الأعظم الأبدي..

اعتزلت في غرفتي مع خبزي المتعفن اللذيذ !

ومع حاسة تذوقي الجديدة وطعمه الشهي، شعرت بلذة كأن عقلي يتفتح..

يفكر..

يرى..

يسمع ..

كيف يكون التراب سلاحًا!

وأيضًا يجب ألا تكون طريقة بها رفق.. فهو من اجتز رقبتها عمدًا.. وانتهك حرمة جسدها قاصدًا.



كان هناك القليل من الأفكار عن دفنه في الأرض حيًّا؛ فالأرض من التراب..

و كان هناك الرجم بالحجارة؛ فالحجارة أيضًا تراب.

كنت بحاجة إلى مساعد.. إنسان أرى أنه يحمل قلب يسوع بداخله..

إنسان لا يحمل الشيطان في اسمه، مثله..

ظللت أبحث في جميع أبناء القرية عن ذلك المساعد، ولم يخطر لي ببال أن يكون الفتى "الأمي"!

الفتى الأمي زميل الملحد، كان يحمل قلب يسوع . أنت كنت تعلم ذلك حين غفرت له أبي، ولكنني كنت أجهل الأمر..

رأيته ذات مرة يعترف لديك منذ أيام..

اختلست النظرات لكما، ورأيت علامة الرب على جبهته كما سبق ورأيت علامة الشيطان على الغريق..



رأيت دموعه البريئة تنساب من عينيه..

كما..

رأيت في نظرتك نظرة يسوع..

***

قطعت حديثها قليلًا:

- ولهذا فزعتِ حين رأيتِني مع الفتى قبل غرقه؛ لأنك رأيتِ غضب الرب عليه وظهرت لكِ علامة الشيطان؟

أومأت برأسها واستكملت حديثها..

***

ذهبت له، كان خائفًا قليلًا، لا أعلم لماذا ظن أنني سأقتله بعد أن قتلت صاحبه، وأيضًا لم أنسَ أنه لم يبلغ أحدًا عني..

"أشكرك.. فأنت لم تبلغ الشرطة عني إلى الآن."

كانت الكلمات كفيلة بأن تكشف عن قلب الإله بداخله، رأيت دموعه تنهمر بقوة وضراوة، رأيته يصرخ بين أحضاني، ضممته إلى صدري، وظل هو كالطفل الصغير..

"أسعيد أن الرب غفر لك ما قدمته من ذنوب؟!"

كان لا يتكلم، فقط يبكي، وجسده يزداد في رعشة احتوائته أكثر حتى أهدئ من روعته، وسكبت عليه بكلماتي الباردة لتبرّد ناره:

"السماح له مقابل.."

ضغط على ذراعي بقوة لم أشعر بها تقريبًا..

وحاول النهوض بعينيه الباكيتين ونظر لي..

"أترين يسوع؟!"

"أحيانًا"

"أغاضبٌ مني؟"

"أنت مثل آدم حين فُتن بشجرة الخلد."

"سيسامحني؟!"

"إذا عبرت اختباره الدنيوي"

"وما هو ؟!"

"استخدام الطبيعة لإعادة توازن العالم."

"ماذا؟!"

"يسوع يريدك أن تساعدني في قتل الشيطان الذي ذبح الفتاة بأبشع طريقة ممكنة"

"ولكنني سبق وساعدتك وأرشدتك لمرادك!"

"يسوع غير مستكفٍ، يريد المزيد منك لتقدمه له قربان السماح"

ثم قدمت له حجة الوثوق فيه؛ فوافق على الفور.

***



توقفت الفتاة عن الحديث هنا وسارعت بسؤالها:

- وما الحجة؟

أجابت:

- الدليل.. إنهم يحملون الشيطان.. وهو يحمل قلب الإله..

في تلهُّف سألتها مجددًا:

- وما هو ذلك الدليل؟

أجابت:

- يجب أن تحصل أنت عليه.

وأكملت حكايتها..

***

أطلعته على كل شيء من أول وهلة إلى النهاية لم يكذبني بل صدقني كأن ما أقوله كلامٌ مقدسٌ من



الرب، لم يكن يحمل نظرة الشك التي تمتلكها أنت أيها الأب، وبعدها وضّحت له نظرية عناصر الكون، وأن القتل يجب أن يكون بالتراب، ولكن "الأميّ" كان يمتلك من الذكاء ما لم أمتلكه أنا..

قُلت له إنني أظن طالما التراب هو الأداة إذًا يمكن بالدفن أو الرجم..

ولكنه كان يملك نظرة غير نظرتي..

"كلما سحقناه ونال من العذاب أكثر سنكون إلى الرب أقرب. صحيح؟!"

أومأت برأسي بالإيجاب..

"إذًا أنا لدي فكرة أقوى من الدفن والرجم.."

أخذ يفكر أكثر وأكثر..

"امنحيني الليلة حتى أكملها في عقلي ثم سأطلعك عليها.."

***

سألتها في تعجُّب، بعد أن توقفت عن الحديث:

- كيف لإنسان أن يوافق على قتل آخر، بل ليس ذلك وحسب، إنه يبتكر طرقًا شنعاء لسفك الدماء لمجرد أنه يصدقك؟!.. هناك شيء غير منطقي.

- قلت لك جعلته يرى الشيطان لديهم، وقلب الرب عنده.

- وحتى إن حدث ذلك.. مازال أيضًا هناك شيء ينقص.. هناك حلقة مفقودة.. أأنتِ متأكدة من أنه كان يتبع رؤى الرب.. أم كان يتبعك أنتِ"

- وهل هناك فارق؟!

- الرب ينظر للقلوب.. بالتأكيد هناك فارق.. كما أنك كذبتِ، يسوع لم يأمرك باتخاذ الفتى رفيقًا لكِ..

- الكذب في تنفيذ مبتغى الرب ليس بالشي الآثم..

***

لم يصل الأمر إلى الليل، فقط مرت خمس ساعات تقريبًا، كانت الشمس تتجه ناحية الغروب، جاءني "الأميّ" في بيتي ونظر يمينًا ويسارًا مدعيًا الحرص أمامي، وهمس:

"عند انتصاف الليل، في الساقية المهجورة."

و رحلَ عني دون أن يتكلم مجددًا، وأغلقت الباب وأنا لا أفهم ما يعده ذاك الفتى، ولكنه على أية حال سيجعلني أنتهي سريعًا من ذلك الأمر؛ فأمي تنتظرني والملكوت اشتاق لي..

كان النصف السفلي من جسده مدفونًا في الأرض..

كان البدر شاهدًا للرب على ما سيحدث..

كانت السحب تميل إلى الحمرة قليلًا..

تناثرت قطرات الأمطار ببطءٍ شديدٍ، وكان "الأميّ" ينظر لي وأنا مقدمة عليه.

سحبَ دلوًا ضخمًا من جانبه، والقاتل مقيد بالأرض، مكمم الفم، وعيناه غير مصدقتين ما يحدث..

شرع "الأمي" في قول سبب الإعدام، ولكنني أمرته بالتوقف حالًا..

قمة القهر والعذاب أن تعدم أحدهم دون أن يعلم لماذا ينال هذا العقاب..

كان لا يعلم أننا نقتص للفتاة المغتصبة التي نسيها، وأيضًا كنا لا نعلم كم من الضحايا قُتِلوا على يد ذلك الشيطان..

"فكرت في الأمر طويلًا.. طالما الرب يريد من حاملي قلبه، القصاص بواسطة عدالة الطبيعة أمام من حملوا قلوب الشيطان وانتهكوا عدل الكون، فسأجعل جميع العناصر تقتص منه.."

كان القاتل يحاول الإنصات للكلمات وأرى شرر الرعب يبرز في مقلتيه..

"أكمل.."

"سنرجمه.."

كنت سأهب على وجه الفتى بلكمتي، ولكن حمدًا لله أنني امتلكت الحكمة لأجعله يكمل حديثه:

"ولكن ما الجديد في ذلك؟"

"سنرجمه بجمرٍ مشتعلٍ.. يحمل جميع العناصر.. مياء ورمل وهواء ونار"

كانت طريقة ما أشدها عذابًا..

أن نقذف جسده بكراتٍ صلبة من النار، ولكن لن أنكر أن "الأميّ" كان عبقريًّا أو ظننت أنه عبقريٌّ..

أمسك إحدى الجمرات بيده فصرخت به:

"ألا تؤلمك؟!"

"كله في سبيل الملكوت!.. ألمٌ قليلٌ في سبيل نعيمٍ أبديّ.."

كان أكثر إيمانًا مني.. كان يصدق الأمر بصورة غريبه أثارت الحيرة في قلبي، ولكن هول الموقف لم يجعلني أهتم كثيرًا أو على الأقل الآن في حينها.

أزال القماشة من على فم القاتل وأرغمه على فتح فمه مع مقاومة لا تذكر منه، ووضعها في فمه وأعاد تكميمه مجددًا..

عاد ناحيتي مبتسمًا فخورًا، وهمَّ بإمساك الجمرات للبدء في الرجم، لوحت له بيدي أن يتمهل؛ فرؤية القاتل يتعذب ممتعه جدًّا.. كان دخان الجحيم يخرج من فمه والجمرة تأكل لسانه.. جعلناه كموسى حين واجه فرعون رضيعًا..

فقد ظل وقتًا طويلًا يعذب الفتاة، والعدل أن ينال هو أيضًا وقته ولا يُقتَل برحمة.

"الأمي" تفهَّم الحديث وابتسم ونظر للجمرة في يده قليلًا، ثم توجَّه لي بالحديث وقال:

"أتريدين تعذيبه أكثر؟!"

"كيف..؟!"

" سنضعها...!"

***

- مهلًا.. كفى.. كفى..

- ألا تريد أن أكمل لك كيف اقتصصنا منه؟

- لا.. ذلك يكفي.. يكفي..

- وأين جثته؟!

- مع أول زائر للأرض المهجورة سيجدونه..

كنت في حاله صدمة، غير مصدق ما تقوله حاملة الخاتم وأحاديثها المرعبة عن اقتصاصهما من القاتل الأخير بهذه الطريقة غير الآدمية..

توقفت كمذياع فقد بطاريته، عمَّ الهدوء في المكان وظلت الإشارة الوحيدة تنبع من بين شفتيها، برزت نضارة وجهها وتورُّد خديها، لفح عينيّ بريقُ حدقتيها

بزرقة وصفاء لونهما الذي لم ألاحظه من قبل، اتسعت ابتسامتها حتى شملت جسدها بأكمله، كنت لأول مرة أرى جسدًا كل ما فيه يبتسم سعيد، تشعر لأول مرة أنها أنهت ما لديها من مهام مكلفة بها من الأب العظيم..

أخذت أبحث في معجمي عن كلمات أتفوه بها لتلك.. عاجز عن أن أصفها بالقاتلة؛ فهي لم تفعل ذلك لسبب شخصي بل كانت تنفِّذ أوامر الإله..

- وهل أنتِ سعيدة الآن؟!

رفعت كتفيها، وضمت ركبتها ناحية صدرها وهمست بتعبير طفولي يستحيل أن أنساه يومًا:

- أنا كالّتي تعد ما لديها لرحلة الملكوت.. أشعر أنني وُلِدتُ من جديد الآن.

ظننت أن الفتاة تقدم على الانتحار، فسألتها بلهفة:

- هل...



أجابت قبل أن أكمل:

- لا داعي أن أنهيها أنا.. فيسوع أخبرني أنني سألقاه قريبًا جدًّا، ورفض أن يجعل الأمر شاقًا عليّ بقتل روحي.

هدأت قليلًا؛ طالما فكرة الانتحار خارج حسابات الفتاة، ولكن تبقى كلماتها وجرائم قتلها وأوامرها الإلهية.. قلبي يصدق، وعقلي يرفض..

حرصت دائمًا على الإبقاء على مسافة متساوية في منتصف صراعهما غير المنتهي بخسارة أحدهما والتي ستكون بالنسبة لي فقدانًا لهويتي، ولكنهما قد مثّلا حال العرب حين قرروا الاتفاق على الاختلاف الدائم.

رأيت الخاتم ينسلّ من خنصرها وهي تزيله عنها وتنظر لي باسمة وتقول:

- تلك آخر اللمسات للنهاية.. يسوع أخربني أن أمنحك خاتمك لتحفظه لحين ترى الحامل التالي له.. وليد الانعزال.. حامل قلب الرب.

أجبت بعصبية:

- وهو ذلك الشخص الذي سأمنحه ذلك الشيء ليقتل به الناس..

تبسمت الفتاة أكثر ثم ضحكت ضحكة رقيقة، وقالت:

- يسوع أخبرني أنك ستغضب حين تسمع ذلك.. يقول لك إن أولى الوصايا ملاكٌ يسهر على إنارة طريقك.. مجرد أن ترى الشيطان في أسمائهم وقلبك في أجسادهم ستعلم أنني صادقة.

انطلق من قلبي السؤال:

- وماذا يقصد؟!.. أنا لا أفهم شيئًا..

ظلت صامتة ناظرة تجاه الصليب خلفي، ثم عادت للنظر إليّ مجددًا قبل أن تردف:

- عقلك لن يتقبل ما يملى عليه.. يجب أن يكتشف بنفسه..

ظللت أنظر للخاتم طويلًا، وقد نسيت الفتاة والعالم والكنسية والدنيا وأنا أتحسس نعومته ولمعان ضيائه، أتحسس بريق يسوع المصلوب عليه بلونه الذهبي الخلاب، وخطر ببالي سؤال عدت لأساله للفتاة، ولكنها كانت ساقطة أرضًا.. مغشيًا عليها!!

***

مرَّ اليوم الأول والفتاة طريحة سريرها في المشفى المجاور، وتناثرت الأحاديث عن فقدان قدرتها على الكلام منذ خروجها من الدير لدي، وأما بالنسبة إليّ كانت الحياة متوقفة ثابتة لا تتحرك، عيناي لم تعرفا للنوم طريقًا، وقلبي استمر في إقناع عقلي بصدق أحاديثها وعقلي استمر في الرفض، وأذني بدأت تسمع كلمات أناشيد الإنشاد تتعالى من حوائط الدير.. دون مصدر..!!

***

اليوم الثاني أيضًا مر ورغبتي في زيارة الفتاة ألحت على كثيرًا وحين نويت ذلك، قال أطباء المشفى أمرَ

ضرورة نقلها إلى (العذراء أم النور)؛ حتى تخضع لبعض الفحوصات الهامة، وخصوصًا بعد أن توقف نشاط دورتها الدموية. لن أنكر أن كلماتها بانتقالها لجانب الرب تعلقت بقلبي، ولكن عقلي يصر على أن كل ما حدث من قبيل الصدفة.. وقضيت ليلة أخرى دون نوم، ومؤنسي الوحيد كان نشيد الإنشاد والحوائط تتغنى به دون أفواه..

***

في اليوم الثالث قالوا إن الإسعاف جاءت بالفتاة للمشفى المجاور مجددًا، وهناك من يقول إن الفتاة تحمل أخبث الأمراض في عقلها، والطبيب يعتقد أن نهايتها أوشكت، وخصوصًا بعد غرقها في غيبوبة لا نهوض منها، وكانت الليلة الثالثة في عذاب قلبي وعقلي وتخلي سلطان النوم عني، ونفور الذات مني، وحلقة سوداء حاصرت عينيّ، وامتدت الشعيرات الحمراء تحاصر حدقتيّ.. وبقي نشيد الإنشاد كما هو يتعالى..

***



في اليوم الرابع قررت أخيرًا أن أذهب للفتاة لألقي عليها نظرة الوداع؛ خاصة بعد أن قال مصدري أن الطبيب يقول إن كل ما تبقى للفتاة هو بضع سويعات- في أحسن الأحوال-، والملكوت ينتظر هذه العذراء قريبًا فلندعو لها بتقديس روحها ورحمة الله لها.

خروجي من الدير وملاقاة الشمس بعد فترة طويلة، كان بالشيء الجريء بالنسبة لي؛ فلم أكن أتخيل أن أراها مجددًا، ولم أكن أتخيل أن أرى أخيرًا كيف تغيرت قريتي، وخيوط الهم والكرب تتفشى بوجوه أهل القرية. انتشرت الملابس السوداء حدادًا على أرواح الراحلين، يعتقد الجميع أنهم شهداء، وعقلي أيضًا يصر على أنهم كذلك، وقلبي الوحيد هو من يعتقد أنهم وقود جهنم -كما قالت الفتاة-. ولكن لأول وهلة أشعر أنني أميل لعقلي، يستحيل أن يكون الجميع على خطأ وقلبي وحده على صح..

أسير في الطريق وحدي، وكلما رمقني أحد يهب بالنهوض احترامًا لي وعرفانًا. رأيت سيلًا من الابتسامات المرغمة تظهر على الوجوه الحزينة،



ولكنني أقسم إني سمعت بعضهم يقول : "يسوع استعاد قريبته.."

لم ألقِ لهم بالًا؛ فأنا أسمع العشرات من الأشياء التي لا وجود لها، ويكفي النشيد الذي صار سماعه إجبارًا، يتردد ليلًا ونهارًا، يتزايد كل يوم عن اليوم السابق له، وإلقاء نفسي في هذا الأمر سيكون كافيًا أن أفقد منصبي بالكنيسة بعد أن تتناثر الكلمات بأنني غير كفؤ لحفظ الأسرار.

عبرت تقاطع للطرق ورأيت على أحد الجوانب يجلس من شابَ رأسه بحثًا عن ابنته الضائعة وبغضَ حياتي وعقلي الحافظ لسرهم، وشعرت ببغض طفيف ناحية وظيفتي؛ فكشف أسرار البعض يكون أحيانًا مصيبة لهم، ومنفعة لآخرين، ولكن يظل ما أسمعه من اعترافات سرًّا مقدسًا يجب ألا يسمعه رابع..

نظر لي شايب الرأس وهمهمت شفتاه:

- أبن ابنتي أيها العظيم.

تجاهلت الأمر وظللت متحركًا في طريقي ..

مرت عربة سوداء صغيرة..

"أهذا ما يسمونه توك توك إذًا؟ "

كان ملقيًا على جانب الطريق بعد أن أصبح بدون سائق بعدما غرق من أسماه عقلي بـ "الفتى التائب" وما اعتقد الجميع هنا أنه معشوق النداهة، واكتفى المتثقفون بالصمت تجاه الأمر. رأيت أمه تجلس أمام البيت وسكرات الموت تداعبها في حاله شبه اغماء والذباب يحيط بها نظرت تجاهي وتكلمت عيناها وسمعت تردد صوتها بداخلي..

- أرِحني أيها العظيم..

كان الطريق يختتم يسارًا وأنا أرى بقايا الحبل متدليًا من الشرفة التي تأرجح بها أحد المغتصبين، ولكن على الجهة الأخرى وجدت إحدى الفتيات تقف في الشرفة باكية، واتضح أنها كانت على علاقة حب، أو كانت تجمعها عاطفة بالمغتصب ونظرت تجاهي..

- ارحمه..

صعدت سلالم المشفى، واتجهت ناحية غرفة الفتاة مباشرة بعد أن أبلغني الأطباء أنها في حالة متأخرة والموت مقبل عليها بأحضانه، وآخر طلب منّي أن أتلو لها الصلوات.

وهناك من طلب مني أن اطلب من الله أن يسرع أجلها رحمةً لها من هذا العذاب، وآخر قال إنه نوعٌ من تكفير ما لديها من ذنوب حتى تكون من سكاني الفردوس..

طلبت رؤيتها، فأرشدوني إلى هناك، وأحدهم أبلغني أن هناك زائرًا لديها..

فتحت باب غرفتها قليلًا أرمق الدخيل..

كان الفتى "الأمي" يمسك يديها وعيناه تصرخان باكيتين، أنينه يتعالى، ودموعه تغرق يدها وهي في عالم آخر..

اقتربت منه وربت على كتفه، بمجرد أن رآني تعالى أنين دموعه وارتمى على يدي يقلبّها ويقول "يجب أن تسامحني"

قلبي رد هذه المرة:

"لا تخف.. يسوع يسامحك"

دموعه تزداد، ولا يُزد سوى:

"شكرًا"

بدأ يهدأ قليلًا، وشرعت في سؤاله:

- أتعرفها؟

نظر لها قليلًا كأنه يأخذ وقته في حفظ ما تبقى لديها من ملامح ضامرة متجعدة:

- إنها النداهة.. الفتاة التي ندهت قلبي بعشقتها.. أنها خادمة الرب وحاملة خاتمه.

كانت الكلمات كالصاعقة على عقلي، وكالماء المثلج الذي سقط فجأة على قلبي..

- ماذا تقول؟!.. أهذه هي الفتاة العارية التي رأيتها تسبح قبل الحادثة بيوم؟

تردد "الأميّ" كثيرًا، وتعرّق وجهه قبل أن يجيب:

- نعم.. إنها هي..

تلك الإجابة كانت صادمة.. قاتلة.. وأيضًا ساحقة..

هرولت تجاه الطبيب، وسألته دون سابق إنذار:

- ممَ تعاني تلك الفتاة؟

أجاب:

- يتآكل عقلها تدريجيًّا.. تحتضر.. المرض الخبيث برأس...

قاطعته سريعًا ولفظت السؤال الآخر في لهفة:

- أهذا المرض يجعلها ترى أشياءً لا وجود لها؟

فكر في الأمر للحظات وأجاب:

- وارد.. ووارد أيضًا أن يحدث تلاعب بذاكرتها وتنسى أشياء ويتداخل بعضها في بعض.

كنت أجري كالمجنون المصعوق في الشوارع، الجميع يقف ينظر لي باهتمام، كنت لا أراهم ولكن همساتهم تطاردني، الجميع يهمهمون باسم يسوع وينظرون لي.. الكل يعتبرني إله هذه القرية، ولكني لست في حالة تمكنني من الالتفات لهم.. سرعتي تزداد كشاب في عِقده الثاني وأنا ذاهب نحو الساقية المهجورة.. عقلي يشعر بتأهبه للانتصار.. صوت عقلي يتعالى على صوت نشيد الإنشاد وهو يعلن أن الفتاة مريضة.. "الأمي" اتبعها فقط لأنه أحبَّها..

كلما اقتربت منها ورأيت تحول الوجوه من الابتسام والتعجب إلى الرهبة والخوف، كلما أيقنت أن البعض يراني ذاهب للمنطقة الملعونة وأرض النداهة العارية.

تداعبهم ذكرى الشاب الملتصق بالشجرة حين أضاء ظلمات الليل وهو يحترق متصلبًا..

تخاطرهم أخرى وهم يخرجون الفتى من المياء ووجهه يحمل الآلاف من نظرات الهول والرعب.

الليل يهجم في ليلة محاق لا قمر فيها، والأرض المهجورة ساكنة صامتة موحشة، تشعر بأرواح القتلى حولك تسبح في ذلك الهواء القاتم.. لمحت المياه الراكدة، اقتربت منها وكانت كبوابة الجحيم تنظر للعصاة.

اتجهت إلى العشة -وهو المكان الذي قاموا فيه باغتصاب الفتاة-، دخلته أبحث عن شيءٍ معين يثبت نظرية عقلي، وقلبي يتمنى ألا نجد ذلك الشيء. أخذت أبحث، وكانت صدمتي الكبرى حين وجدت رداءً رماديًّا..

"تعثرت بردائها الرمادي.."

كان ذلك الرداء خاصًا بالنداهة العارية أو بحاملة الخاتم.. مهلًا..

كان الأمر كالأحجية التي بدأت تتضح أمامي وتبرز فحواها..

حاملة الخاتم قالت لي إنها جاءت إلى تلك الأرض حين أمرها يسوع بالمجيء، ولكن "الأميّ" رآها في اليوم السابق للحادثة وهي تسبح في المياه..

إذًا حاملة الخاتم جاءت إلى هنا.. ويوم الحادثة لم يكن اليوم الأول.. وتلك العشة هي تملكها..

قلبي ينتفض ويصرخ في عقلي يرجوه أن يتوقف عن إلقاء الاستنتاجات..

عقلي أصرَّ على الاستكمال ورفع من صوته أمامي وأكمل أحاديثه:

"الخاتم قد وجدته الفتاة في يوم الحادثة، وذلك يؤكد أن ذلك الخاتم كان للفتاة المغتصبَة وليس ليسوع "!

قلبي كالمقيَّد بصدري، تزداد انتفاضاته وصرخاته، يتمنى لو تمكّن من انتزاع العقل من الجسد..

استمر العقل وألقي بالاستنتاج التالي:

"ماضي الفتاة واغتصابها كان كفيلًا بأن يولِّد بداخلها طاقة انتقام شنيعة للأخذ بالثأر للفتاة، ومرض عقلها ساعدها على توليد عددٍ ضخمٍ من الرؤى الزيف للأب العظيم..

شعرت أن قلبي سيتوقف من الصدمة والحزن.. لم يكن يتمنى أن يكون ذلك الأمر بهذه الصورة..

كان كل شيء وهمًا..

كذبًا..

غير حقيقي..

الفتاه قاتلة..

ولم تتلقَ أوامر إلهية من الرب قَط..

مشيت في ظلمات الليل عائدًا إلى الدير، كان الخادم في انتظاري، رمق الإرهاق في عينيّ، فنصحني بالنوم لفترة طويلة.

لم أعترض، وشعرت أنني بالفعل أحتاج إلى نوم طويل. ألقيت بنفسي على السرير، محاولًا أن أرمي كل شيء خلفي، لا أريد سوى أن أنام.

فقط أريد أن أنام ..

كانت ليلة هادئة لم تخلُ من رؤيه أو اثنتين.. لا أذكر منهما سوى ابتسامة حاملة الخاتم لي.. وهمسات أن الشيطان في أسمائهم ..

أذكر أنه كان هناك حديثٌ دار بيني وبينها، ولكنني لم أتذكره على أي حال، وكان هذا أفضل.

فتحت عينيَّ على يد الخادم المجعدة وهو يقول:

"الفتاة ماتت.."

صنعت قلادة فضية ووضعت بها الصليب والخاتم معًا، وارتديتها. قدمَ لي الخادم مرة أخرى، وقال باسمًا أن هناك معترفًا يريدني، وسألني إن كنت سأتمكن من مقابلته، وأخبرني أنه نفس العجوز الذي سبق وجاء.

خرجت له بقدمين ثابتتين وواثقتين، رمقته من بعيد، انقبض قلبي وفزعت، ارتعشت.. كان يحدق بي في حزن وأسى، يهرول ناحيتي بخوفٍ وخشوعٍ.. انحنى على يدي يقبّلها ساحقًا إياها في يده..

رفع رأسه ينظر لي وكانت صدمة؛ الفتاة صادقة.. الآن فهمت قصدها.. نعم.. هذا شيطان مثل المغتصبين. الآن فهمت تفسير كلماتها برؤية الشيطان في أسمائهم والرب في قلوبهم..

قال العجوز:

"اغتصبت ابنتي!"

أبوها..



إنه أبو حاملة الخاتم..

لالا..

إنه أبو حامل خاتم يسوع..

أنا فهمت كل شيء الآن!!

نعم فهمت..

اعذرني ربي.. فأنت لك الحق في أن تقول ونحن ننفذ فقط..

كان القصاص تقربًا منك..

الفتاة حين قالت لي الشيطان في أسمائهم كانت تقصد...

- 12 -

ريتشارد

قلبتُ الورقة وسحبت الأخيرة، ولكنها كانت بيضاء. صلعاء دون كلمات. متهتكة، متلاشية الأحبار!

مستحيل..

كنت كالمجنون يبحث في الدولاب، أخذت ألقي الملابس المتفاوتة المقاسات أرضًا، وشعرت بالهمسات في أذني تزداد أكثر وأكثر كما كان يقول الأب إسحق يعقوب، ولكنها مازالت غير مفهومة. وبعد دقائق من البحث الجنوني لم أجد سوى مخطوطة دوِّن عليها "طاحب" ألقيت بها أرضًا وأخذت أبحث مجددًا، مستحيل أن ينتهي الأمر هكذا، يجب أن يكون للاعتراف تكملة.. يجب أن أعلم كيف كانوا يعلمون حامل اسم الشيطان وحامل قلب الرب..

مهلًا..



طاحب..

نعم نعم..

أذكر أنني سمعت هذا من قبل..

بائع الأكفان وبَّخ العجوز المشوة ووصفه بالطاحبي!

نعم العجوز وجَّه لي الحديث لينبهني أنه كان بانتظاري..

كان يعلم بقدومي..

إنه على عِلم بكل شيء!

فتحت باب البيت، هبطت السلالم مسرعًا.. نظرت يميني تارة ويساري أخرى، وقف الجميع ناظرين لي يرونني مجنونًا..

ولكنني شعرت أنهم يعظمونني، كانوا يهمسون، ولكنني أسمع همساتهم..

حركات..

و لكني عقلي يترجمها، لفحت الرياح وجهي، رأيت مينا يهمس في أذن أحدهم ضاحكًا..

كان يسخر مني، أعلم..

يصفني بالضعيف..

المتخاذل..

غير عادل..

انتفضت لهمسة أخرى تعالت في أذني، وعلى يساري وجدت ماريهان تقف أمام بيتها تنظر لي..

سمعتها وهي تهمس بداخلها: "أحبك".

أخذت أجري في الشوارع والأزقة أبحث عن العجوز، يجب أن أجده، يجب أن يقر بما يعرف. يجب أن يخبرني بما يعلم، وفور أن وجدته متكومًا حول نفسه بجانب أحد البيوت، صرخت فيه:

- إنت مين؟!

نهض مفزوعًا ولكنه سعد حين رآني..

- إنت فهمت.. إنت العظيم!.. المنتقم.. حافظ خاتم الرب الجديد.

- أنا غير فاهم..

كيف؟!

سألته ولكنه لم يجب

- في طاحب هتلاقي الإجابة.. بس قبل الساعات الأخيرة من الخميس لازم تبقى هناك.. قُدَّامك أقل من ست ساعات..

للمرة الثانية يتم ذِكر ليلة الخميس أمامي، ولكنني لم أجد صعوبة في تذكُّر الذاكر الأول: محمود.

محمود يعلم كل شيء.. ولكنه مسلم!

كيف يعلم أسرارًا عن يسوع ؟!

أخذت أجري عائدًا إلى البيت مجددًا، ولكنني تجاهلت شقتي وصعدت إلى شقه محمود، طرقت الباب، وكدت أن أمزقه، فتح لي وعيناه دامعتان، وقال:

- أنا نجحت.. إنت فهمت؟

أمسكته بقوة من ذراعيه وسألته راجيًا:

- محمود، فهمني.

- لاازم تروح قرية طاحب.. بسررعة.

كنت أتسابق مع الزمان حتى أصل لقرية طاحب، وحققت إنجازًا غريبًا، ولا مفسر لوصولي إلى هناك في زمنٍ قياسي. كانت كما وصفها الأب تمامًا. أخذت أسأل عن الكنسية كل من أشاهده وكلهم يرشدونني بمحبة خالصة، أخذت أجري حتى صارت على أعتاب نظري.

***

كان بها عجوز متجعد، علمت أنه الخادم محبوب الأب، سألته في تعجل:

- أين الأب إسحق؟

أجاب سريعًا:

- في المستشفى.. أم النور.. قريبة من هنا..

اتجهت سريعًا ناحية بوابة الكنسية، ولكن الخادم أردف قبل خروجي:

- أسرع.. فليس هناك وقت.

لم ألتفت له مجددًا، وحين خرجت وجدت أهل القرية جميعًا واقفين كالأصنام وكلٌّ منهم يشير إلى الطريق نفسه، كانوا كلوحات إرشادية للطريق الصحيح للمشفى. كنت غير خائف والهمسات تتصاعد في أذني، لم يأتني الصداع هذه المرة، صرت أعتاد عليها.. والجميع حولي يشير إلى الطريق..

وصلت إلى المستشفى، وكانت كما قالت حاملة الخاتم بالضبط؛ نفس الوصف، وآلام تهاجم المرضى والأهالي. رأيت حجرة الإنعاش كما قالت عنها، رأيت الطبيب



يبحث مجددًا عن جهاز الصاعقة. أخذت أبحث في الغرفة عن الأب، ولكن غرفة فُتِحَت في نهاية البهو وحدها، جريت ناحيتها، وكانت أنظف مكان بهذا الوحل، ورأيته أخيرًا.. نائمًا..

رأيته..

إسحق يعقوب لأول مرة..

- 13 -

البداية!

- يااااه.. أبونا إسحق يعقوب.. أخيرًا قابلتك..

لم تكن إجابته سوى ارتعاشة طفيفة في حدقتيه ناحيتي، وهبوط وصعود صدره بقوة كأنه أزال عن عاتقه حِملًا ثقيلًا طالما آلمه.

- حاسس اني شُفتك قبل كده!

أشار لي بسبابته أن أزيل عن فمه قناع التنفس؛ لأتيح له الفرصة للقليل من الهمهمات المنتظرة، والحاملة للإجابات أخيرًا..

- أنا هو إنت.. وزَيّنا موجود كتير.

أخذت شهيقًا طويلًا وكتمته في صدري، وشعرت برائحة الموت تسبح حولنا، أعتقد أن الأب يوشك على التنيح الآن، ولكن لن أجعل هذا يحدث قبل أن أنال منه ما أردت.

- فهمني.. أنا لاقيت اعترافك والورقة الأخيرة مش موجود.

نظر للسقف قليلًا -وقد رمقت رعشة خفيفة تنتاب يديه-، وردَّ متألمًا:

- الصفحة الأخيرة إنت اللي هتكتبها.. الاعتراف هو اللي راحلك مش انت اللي لاقيته.

نظرت لعداد دقات القلب، وبدأت أرى اضطرابًا ملحوظًا في ضربات قلبه فتعجلت في سؤاله:

- إزاي؟!.. إشمعنى أنا؟!

أمسك يديّ وضغط عليها برفق وهمس بصوتٍ ينخفض تدريجيًّا:

- لأننا واحد.. ولكل واحد دوره.. عندي انتهى، وعندك هيبدأ.

بدأت صافرات تنطلق من الأجهزة المحيطة بسرير الأب لتعلن النهاية فارتعشت وسألته آخر أسئلتي:

- إزاي شُفت الشيطان في أسمائهم والرب في قلوبهم؟!

- الشيطان.. 666.. هتلاقيه في أسمائهم!

- لازم تكتشف لوحدك، لازم تثبت للخاتم إنك تستحقه!.. وأخيرًا، اكتب!، اكتب كل حاجة شُفتها وهتشوفها هتساعدك كتير.

- أكتب؟!

الآن تذكرت مَن أخبرني في مراهقتي أن أكتب، أظنه كان أحد الأطباء الذي شخَّص حالتي -بضيق عقل وأفق- أنني مصاب بالبارنويا، أي جنون عظمة كنت تظن أنني مصاب به أيها الأحمق.. ياليتك هنا لتسمع ذلك الحديث، أنا مالك خاتم يسوع أيها الغبي، أنا حامل سرًّا من أعظم أسرار الرب!

ربت على يدي مرتين وابتسم وأشار لي بالاقتراب، وحين بدأ في قول شيء، شعرت بزفير مُعطر يخرج



من فمه ليدخل في أذني، أسمع صفيرًا شديدًا برأسي، وتتعالى الهمسات السابقة، ولكن هذه المرة واضحة.

كانت مقتطفات من سفر نشيد الإنشاد!!

جعلني كالظمآن بعد رشفة من يده غير مشبعة..

السر كله كان يمكن في رؤية الشيطان في الأسماء، والرب في القلوب، والآن أنا أمام رحلة البحث عن ذلك الأمر، كأني مازلت لا أستخدم العين المطمورة داخلي بصورة صحيحة.

***

ركبت الحافلة عائدًا إلى القاهرة، وانتهى خميس العهود وهجمت جمعة الألم -كما أسموها الجميع-، وقلبي ينفطر تلقائيًا حينما تذكرت أمي وغرقها داخل سيل الكهرباء بعدما تمنيت لذلك أن يحدث. علمت أنني قتلتها في لحظة غضب. شعرت أن كل ما لدي من طاقة كامنة قد تكون مستمدة من روح القدس، أو قد أكون أنا الروح نفسها؛ فلا أعلم، ولكن بكل حال من



الأحوال ليس من الحكمة أن أمتلك أنا تلك القوة الهائلة. طاف بي عقلي إلى رؤية الكنسية مرة أخرى، وبلاطها يهتز أسفل قدميّ ودماؤهم تغرقني وأنا ثابت بينهم بعدما رأيت فيهم انعدام الروحانية وتنفيذ طقوس باردة بلا روح أو حياة.. أنا قاتل.. قتلت الكثير بدم بارد بدون وجه حق!.. قتلت الأبرياء..

الآن أفهم لأول مرة، لماذا لا يصح أن يكون الرب من البشر؟!

فتحت قفل السلسلة لأنزعها من رقبتي، وأمسكتها جيدًا، نظرت إلى الخاتم واجدًا فيه نوعًا من ألفة لم أعرفها من قبل وأنا أتذكر حاملة الخاتم وهي تقول للأب إنها تعيد إليه خاتمه!

هذا خاتمي أنا.. لأنني بداخل الأب والأب بداخلي.. إننا نملك الخاتم لفترة، نبحث فيها عن حامليه لتنفيذ ما يوجب عليهم تنفيذه وهو ما يبدعه عقولنا - نحن المُلَّاك - لينفذه الحامِلون!

وصلت لنفس المنطقة التي رحلت منها، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة فجرًا. صعدت إلى شقتي أنفض ما لدي من ملابس، وأشعرني الخاتم برغبة في ارتدائه، ولكنني تذكرت الأب؛ فهو لم يذكر أنه قد ارتداه قَط؛ لذلك تراجعت على الفور، وقررت أن أختلس بعض سويعات النوم.

رأيت نفسي أجلس على عرش وهم من حولي، عرفتهم دون أن أكون قد رأيتهم من قبل. كانت نحيلة وهزيلة، ولكنني عرفت من أول نظرة أنها حاملة خاتم يسوع العظيم، انحنت أمامي وقبَّلت يدي ورأيت الثاني يقف باسمًا. كان هذا الشخص هو"الأميّ"، ولكنه كان يشبه أحدًا رأيته كثيرًا من قبل.

تحسست أنفي رائحة دخان حريق، واختفى الجميع من حولي.

حين استيقظت سمعت أصوات صراخ قوية، خرجت إلى الشرفة لأرى ماذا يحدث، كانت أم مريهان الثرثارة تصرخ:

"النار.. هتاكلنا.. النار.. قتلوا بنتي.. قتلوها.."

أخذت أجري هابطًا الدرج لأرى المشهد بصورة أوضح من أسفل؛ كانت الأم تقف والنار حولها وهي تشير إلى إحدى السيارات المتحركة التي رمقت منها نظرة سريعة للسائق الذي كان..

مينا!!

مينا قتلَ مريهان!!

مينا أراد اغتصابها!!

مينا كالملحد..هو الطبيب صاحب العلام، والذي علمت في أول لحظة رأيته وأنا في السيارة أنه قد تقدم لإحداهن وتم رفضه.

نعم..

مينا أراد أن يكون زوجًا لمريهان.. كنت أعلم أن مَن أرادها توسمَتْ فيه الشر..

ومريهان سبق ووصفِتهم بالشياطين.

بطأ كل شيء من حولي وانعدمت أصوات النيران وأنا أقف بين صرخات المنطقة بأكملها، والجميع يتسابق في إخماد النيران، واثنين قادمان ناحيتي ببطء، شعرت بهما من خلفي، ولكنني لم أنظر لهما..

قال محمود وكان أحدهما:

"لللللاقيت إججاباتك؟!"

أجبته:

"مش كلها.."

ثم صمتنا نحن الثلاثة نراقب المشهد، وبعدها أردفت موجهًا حديثي للآخر:

"عمرك ما كنت عجوز.. إنت مجرد شاب مشوَّه!"

قُلتها ورمقت حرق يديه..



"الأب كان مُصر يسميني الأميّ، رغم إني اقتصصت من أبو حاملة خاتم الرب."

قال محمود: "وهننعمل إيبيه دددلوقتي؟"

أكمل الأمي الحديث: "الاختيار ليك، تحب مين يحمل خاتمك؟"

أخرجت الخاتم من جيبي، وضغطت عليه بقوة وأنا أفكر في الاختيار، ثم قررت أن أعفي "الأميّ" من المزيد من الاقتصاص الحق، ومنحت الخاتم لمحمود.

مسكه وحاول ارتداءه، ولكنه تراجع وقال:

"مممقدرش البسه!.. بالنننسبة لي ععيسي ععمره ما اتصلب.. بالنسبة لي يبيهوذا هو اللي اتتتقتل.. ههقتص.. بس من غير خخخواتم.. كماان اللييي كاااان بيجيلي ففي الححلم مشش عيييسسي.. ككان ححاجة تانية.. حاجة عظظيمة أووي.. مممكن تعتببره ملاك.. أو .."

تفهمت الأمر وأخذت الخاتم منه، ثم توجهت به إلى "الأميّ"، وقُلت:

"مش شايف سبب إن يكون هناك فارس واحد لتحقيق عدالة الرب"

ابتهج "الأميّ" كثيرًا، وخطف الخاتم من يدي وارتداه بخنصره، وانسحبت أنا من المشهد بعد قولي الأخير لهما: "قبل جمعة الألم.. تنهوا الحكاية.. لازم العدل يتنفذ."

توجهت مباشرة إلى بيتي، وبدأت في صعود الدرجات طابقًا بعد طابق..حتى أنتظر في شقتي بالطابق السابع..

متآنسًا بصوت كلمات نشيد الإنشاد..

منتظرًا عودة خاتمي لي..

منتظرًا خاتم يسوع ..

ريتشارد

حافظ سر الرب الأعظم

روايات أخرى للكاتب:

- ثلاثية كش ملك.. لعنة جسام

- ثلاثية كش ملك.. الثالوث

- ثلاثية كش ملك.. السامري

- نبي رهن الاعتقال



